ابن النبي

ترجمة: عبد الكريم الجويطي

منشورات الجمل

رواية

محمد الناجي

ابن النبي

ترجمة: عبد الكريم الجويطي
مراجعة: بشرى الزاوي

منشورات الجمل ـ دار الأمان

محمد الناجي: ابن النبي، ترجمة: عبد الكريم الجويطي، مراجعة: بشرى الزاوي

الطبعة الأولى ٢٠١٧

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٧

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2017*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

يوم الصمت

اسمي أسامة، أقبلت على المائة من عمري، فغدوت كهلاً، ذا شيب عتيد، أنازع سنواتي الأخيرة، التي دأبت فيها على التنزه بدمشق بيت الخلافة الإسلامية، حيث أقضي طرفاً من السنة، أستنشق الهواء الدمشقي النقي، وخاطري يجتر بحنين غامر ذكرى المدينة المنورة، دورها، أزقتها، مساجدها، ومنارتها، وأستحضر سنواتنا الأولى هناك مع الرسول، هاربين من مكة لدار الغربة، تلك السنون التي خرج فيها الإسلام بالكاد من شرنقته، وبدأ يخاطر بالخُطوِّ الحذر نحو العالم.

لم يمر من الوقت إلا القليل، إن حسبْنا عدد السنوات الفائتة، فقط بضعة عقود تفصلنا عن السنة الأولى للهجرة، إلا أن مضيها ومرورها كان حافلاً، عامراً، ومتلاطماً. فكل ما أراه حاضراً هنا الآن هو مناقض للبساطة التي ألفناها سابقاً، ومغاير لزهد البداية الذي عهدناه. كل شيء تغيّر، شكل البنيان، ترف الدور الكبيرة، عذوبة وصفاء الماء، نظافة الأزقة، حوانيت التجار والحرفيين المرصوصة والمليئة بوفرة مشهودة، تباين سحنات ولباس الناس، ورغد العيش الذي يجلل كلَّ ما في هذه المدينة، التي صارت حاضرة أمة مترامية الأطراف.

أخرج دائماً لنزهتي اليومية في المدينة، وفي البارحة، وصلتني دعوة من الخليفة نفسه، لحضور حفل استقبال منظم على شرف

الهاشميين، الذين جاؤوا لتجديد البيعة، وبدون شك لنيل عطاياه، التي لا يبخل بها في العادة عليهم اتقاء لشرهم. تلافيت الدعوة بأدب جم، لأني في هذه الأيام الأخيرة، لم أعد أستمتع بأنشطة القوم هذه المفعمة بالدناءة والمذلة والعجرفة، تعرفت على هؤلاء الناس في ظروف كانت فيها شهواتهم وخيلاؤهم تتبرعم بالكاد، لذا صرت أتهرب من تجمعاتهم المليئة بالحسابات الماكرة والادعاءات الكاذبة، وقد بلغت من العمر مبلغاً لم أعد أحتمل فيه هذه الألاعيب.

بوصولي قرب القصر الذي يحاذيه طريق نزهتي، رأيت حشدا كبيراً من الناس، متزاحمين أمام بابه، والعسس يبعدونهم بفظاظة، يتكرر هذا المشهد كل يوم، بنفس التفاصيل، يتداعى أصحاب الحاجة على حاجز، وضع أخيراً للتحكم في سيل الوافدين المتعاظم يوما بعد يوم. لم أر مثل هذا المشهد إلا في الكعبة، لكن الشعائر تتطور ومواطن التعظيم كذلك، تدهشني مثل هذه المشاهد، التي أكون فيها مكتوف اليدين، ولا أملك فيها إلا القدرة على الرؤية والملاحظة.

واصلت نزهتي، مبتعدا عن القصر، وعن صخب المدينة، التي تغلي ساحاتها وأسواقها بهتاف من العالم أجمع، الدعاية للسلع والخصومات تؤدى كلها بلغات ذوات نبرات متباينة، مثلها في ذلك مثل السحنات المختلفة للتجار والسماسرة والحمّالين، إذ يأتي جمّالون من كل حدب وصوب إلى أن تمتلئ محطة القوافل عن آخرها، وبدون انقطاع. كانت هذه المدينة بالنسبة لنا آنذاك في الطرف الأقصى من العالم، فصارت اليوم قلب الأمة الذي يصل إشعاعه لكل الأمم الأخرى، وهي ممتلئة عن آخرها بالشعراء والعلماء والمغامرين والعرّافين، فالفن والثقافة استعادا مكانتهما التي أزري بها في بدايات

الإسلام، وأنا أعترف بهذا، لكنني أضطرم أسى على ما يسمى في بعض أوساط القوم بالرقي، والذي كدر نفسي ببعض انحرافاته. لقد أصبت بالغثيان منذ بضعة أيام، حين أخذني أحد أصدقائي إلى سوق الرقيق، فصدمني المشهد المحزن في واضحة النهار، دون أن يصدر ذلك عند الجمهور أدنى استياء أو احتجاج، لا أعرف كيف وصلنا إلى هذا الدرك الأسفل، ولما لا يتوقف سيل العبيد عن الكبر، في أمَّة ما انفكت تتسع. إنِّي أطرح على نفسي دوماً نفس التساؤل: كيف اقتيد هؤلاء إلى هنا؟ وكيف يمكن تفسير عمى بصيرتنا تجاههم؟ أين الأخوة التي طالما دعي لها في زمن الرسول، والتي اغتبطنا بها أيّما اغتباط؟ ابتعدت سريعاً عن السوق، آخذاً على نفسي عهدا بعدم وضع رجلي هنا مرة أخرى، لقد حرك فيّ المشهد جرحاً قديماً لم يندمل بعد، جرحاً جعلني لا أحتمل مشهد الاستعباد والإذلال، لكل هذا آليت على نفسي بأن اقتصر على التعبد، ومناجاة الله الرحمن الرحيم بنياط القلب، بعيداً عن دوائر السلطة والمال.

واصلت سيري مثقلا بالصور والذكريات الحزينة، أحس بوهن عظمي، أزاول منذ مدة رياضة المشي، لأبقى متماسكاً في انتظار أن ألحق بأغلب أصحابي، الذين يرقدون الآن في سلام. وكالعادة أصل إلى جامع المدينة الكبير، الذي شكل مصدر فخر لها في العالم، وأندهش المرة بعد الأخرى لفخامة الخشب المنحوت، وجمال الفسيفساء الخلاب، اللذين يزينان الجدران، لقد رأيت الحرفيين الذين جاؤوا من جهات وأمم وديانات أخرى، يعملون بدقة متناهية، لتحويل هذه المعلمة إلى تحفة تمجد الله، وأبتهج لأغانيهم المحملة بأجواء صارت أجواءنا. دخلت، واجتزت الباحة الكبيرة، وانضممت بعد تحية المسجد المعهودة إلى جماعة من المؤمنين، ينصتون لواعظ

متفقه، معروف بمجلداته الضخمة، وهو يقدم درسه اليومي، وصلت حين كان بصدد تقديم تعليق على آية زواج الرسول بزينب بنت جحش، وبحسب موعظته، فما جرى واضح كماء يترقرق بين صخر، قال:

«إخواني الأعزاء، الله برحمته الواسعة، وضع حداً لكل التباسات رغبة الرسول الدفينة في زينب، وهو المحيط بكل شيء علما، فقد أمره باتخاذها زوجا له بعد طلاقها من زيد، وأبطل بهذا النسب الذي يجعل من زيد ابنا لمحمد، منذئذ صار الأطفال بالتبني ينسبون لآبائهم الفعليين، فالله لا يحب تزييف الحقائق، والرسول ليس أب أحد من الناس، لاحظوا إخواني فضل الله على زيد، لقد ذكره في كلامه المقدس، أي حظوة هاته! أي حظ لرجل كان فيما مضى مجرد مولى عند رسولنا الكريم! وهكذا سيكون له شرف كونه عتيق الرسول، أنظروا أيها المؤمنون، كيف يعمل الله على تغيير العادات الباطلة، التي كانت تقوم عليها مجتمعات الجاهلية، والحمد لله رب العزة والجبروت».

طفحت أنا وربي من هذا الكلام، وعمّ غمام داكن كثيف يومي هذا المشمس، وما أن انتهى الواعظ من درسه، حتى أديت صلاتي دون أن أنبس ببنت شفة، وخرجت لألتحق ببيتي. إنّي أحترم الأماكن المقدسة حيث كبرت، ولست من هواة إثارة الفضائح، وكمحارب مجرب تعلمت كظم غيظي، وهذا الكلام الذي سمعته من الواعظ، تعودت سماعه، وخبرت مضمراته ومراميه، وأعرف كيف أفرق فيه بين الإلهي والبشري، لأنّي أحد الفاعلين في مجريات ما جرى.

أنا أسامة بن زيد، ابن محمد رسول الإسلام، وليس ابن حارثة

المزعوم، وأطعن بالتزوير في هذه الرواية المجمع عليها، والأكثر انتشاراً للأسف، والتي تجعل من أبي مولى، ولنقلها بوضوح أكثر، تجعل منه عبدا. لقد كان لي متسع من الوقت لرؤية هذا الضرب من الخرافات يولد ويزهر، وفهمت وأنا أتابع نسجه، كيف يتم تشكيل الأذهان، وكيف تستتر السياسة بالدين، لخدمة أهدافها الخاصة، أشفق على هؤلاء المستمعين بخشوع لعالِم منخرط بكياسة في هذا الادعاء الباطل، عالمٌ يقدّم ترهات على أنهَا حقائق، والوزر في كل هذا يتحمله بالأحرى في نهاية الأمر علماؤنا، ولو أن ذكاء بعضهم لا جدال فيه. كثير من الماء مر تحت الجسر، منذ زواج زينب بمحمد، وطلاقها من زيد، ولا قلم تجرأ على التدقيق في هذا الخبر، الذي به الكثير من المواطن المظلمة الواضحة، فالإيمان بالله لا يعني التسليم التام لنوابه في الأرض، واعتبار ما يخطه كتَبَتُهم أمراً مقضياً.

لقد شَهِدتُ المؤامرة التي حيكت ضد أبي، وقد قررت بعد أن لزمت الصمت لمدة طويلة احتراماً لجدي محمد، أن أتكلم قبل أن أسلِّم روحي، فالخبر الذي سأرويه بدأ ضد التيار، في وقت كان فيه أبي قد مات، وكان بدء ذلك، في يوم المأتم، يوم وفاة الرسول محمد، يوم الكرب العظيم، ولكن وللمفارقة، كان يوم فخر كبير بالنسبة لي أيضاً، فباقتراب موته طمئنني جدي المحبوب على الحب الذي يكنه لأبي زيد ولي.

بلغت بالكاد ثمانية عشرة سنة، حين عيّنني على رأس آخر غزوة في حياته، ضدّاً في رغبات المقرّبين منه، وكان تحت إمرتي مجموعة من كبار الصحابة، الذين يكبرونني في السن، وسيدير بعضهم شؤون أمة كبيرة بعد ذلك. فعل ذلك بالضبط قبيل وفاته، كأن العاطفة التي يكنها لنا تأججت بالندم، الذي ربما كان يتآكله للحيف العائلي

والتاريخي، الذي ارتكبه في حق أبي، وفي الوقت الذي أَحسّ فيه بقرب الوداع، أراد أن ينصفنا، ويكرمنا، وأن يطهرنا من العبودية، التي استمات العديد من أقربائه لإبقائنا فيها، لأننا لم نكن عبيداً لهم، ولا موالي، كما كان يحلو لهم وصفنا، وتصنيفنا، وإنما أناس أحرار حقا.

ولدت من زواج زيد الأول من أمَةٍ، كانت في مِلكِ محمد، أمّي المحبوبة، الورعة، مرضعة الرسول، المخلصة، أم أيمن. وحملت السلاح كخيار حياة، لأحمي شرف أبي، وشرفي الذي ديس بالأرجل، من طرف دسائس رؤوس آل هاشم وحلفائهم وبيادقهم، وقد اختارني جدِّي محمّد لأقود غزوة مجيدة، وأَخَذَ الكلمة أمام الناس ليخبرهم، وليخرس الأصوات البئيسة، التي تحججت بصغر سني للنيل مني، مدّعية أنّي عاجز عن أداء المهمة، التي وكلت بها على الوجه الأكمل. في اليوم الذي عُيِّنت فيه ملئ صدري حد الاختناق اعتزازا، وكادت السعادة الغامرة أن تودي بحياتي، كنت أمشي على السحاب، وأنا أتنشق بملء رئتي هذا التكريم الكبير، الذي يخلد مساري الحافل، كنت سآخذ طريق الشهادة، الذي سار فيه الشهيد أبي كمحارب صلب.

نعم، كنت معتزا بنفسي، فما صدر من الرسول خليق بالاعتزاز، في هذه الأوقات العصيبة الملتبسة، والمنذرة بأحداث جسام في الزمن الآتي، وحين خروجي من لقائي مع محمد، دعاني أبو بكر العظيم بأدب جم، وجذبني من يدي إليه برفق، لكي نتسارّ بدون شك. إنَّ لهذا الرجل الداهية حنكة كبيرة في تدبير الأمور، دون أن يظهر عليه ذلك، وقد رأيته حين وصلت، ولكنّي لم أولِهِ اهتماما خاصا، لم يصدر أيّ حركة، لكنه كان في انتظاري، يبدو هذا

واضحاً، يحرِّكه فضول معرفة سبب حضوري، قلت له سبب ذلك بدون مواربة، كان هو وعمر تحت قيادتي في الغزوة المزمع خوضها، فحدّثته عن مسارها، أحسست بيده حينذاك ترتخي في يدي، وبنفسه يعاود إيقاعه العادي، كأنه انقطع لبرهة زمنية، كان يخاف من أمر ما، ولم يكن لأصحابه من الأكبر سنا إلى الأصغر إلا هاجس واحد؛هو الوصية! شغلهم الشاغل، وسراب بقيعة الذي يعميهم جميعاً.

كان ذلك في العام الحادي عشر من الهجرة، يوم اثنين بالضبط، قبيل أربعة أيام متبقية من شهر صفر، حين أمر الرسول بالتأهب لخوض الغزوة، لاجتياح الروم البيزنطيين. وما أن أصدر الأمر حتى تفرق الصحابة بسرعة، ليقوموا بالاستعدادات اللازمة لحدث كهذا، لم يكن هناك متسع من الوقت، وكان يبدو أن الأمر يحتاج إلى كثير من الاستعجال، إذ كان يجب الامتثال له بدون تأخر.

في الغد، كان يوم الثلاثاء، دعاني الرسول مجددا، وتبثني على رأس الجيش، أعطاني تعليماته، وقدّم لي نصائحه، يا الله كم كان ذلك مثيرا! إنها المرة الأولى التي أقود فيها جندا، وكنت على أهبة ختم الغزوات الأولى والأوّلية للرسول، والتي كانت فاتحة ميلاد أمة الإسلام العظيمة، ومنذئذ ما انفككت أطرح، وأعيد طرح أسئلة على نفسي، لماذا اختارني في هذا الوقت، الذي أحس فيه بالمرض يسري في عروقه؟ رغم أن خلفاءه المحتملين كانوا بجنبه، وبعضهم مشهود له بالبراعة والحنكة، ولا ينتظرون إلا إشارة من الرسول لينتصبوا متأهبين، وأنا أعترف بذلك، فلو اختار أحدهم لقيادة هذه الغزوة، لكان ذلك بمثابة إشارة من السماء له، وحجة ذهبية يمتلكها حين يفتح الجدل حول الخلافة، فيكون ذلك شبه وصية. لكن الأمور لم

تجري هكذا، عيّنَنِي أنا، الأكثر شبابا، ولكن الأكثر قربا من قلبه على الخصوص، أتساءل دائماً هل كان ينتقم من تلك الظروف والأعراف القبلية التي دفعته ليدير ظهره لانتساب زيد الشرعي له؟ ألم يكن هذا التعيين رسالة لكل من بارك وهتف لإذلال ابن محبوب؟ حكم ربما لم يقبله أبداً في قرارة نفسه، وهاهو الإنسان فيه يتخذ مسافة إزاء الرسول، ويملأ هذه اللحظات الأخيرة المتبقية له في الحياة، لحظات تغمره فيها أحاسيس التفكير في الانفصال عن ذويه، لذا فهو ينكفئ على نفسه كأبٍ وجدٍّ وقريبٍ وزوجٍ، ويسيّج محيطه الحميمي بالمقرّبين الذين يدفئون دائرة المحبّة والقرابة الضيّقة، فالله ينتظره، الرفيق الأعلى، ولم يتبق له إلا الانتهاء من توديع ذوي القربى.

أ يمكن أن يكون تعييني إذن انتقاما من النفس، أم من شيء آخر لا أعرفه؟ بعيداً عن هذه الأسئلة المعقدة، والتي لم أكن أملك القدرة الذهنية على مواجهتها في ذلك اليوم، كان سؤال آخر يقض مضجعي، وقد وجدت له جوابا في هذه الغزوة، هل هناك سر ما في استشهاد زيد لم يبلغني منه شيء؟ كان الانتقام على الأقل هنا، بل بشكل مؤكد، لقد أمرني في كل الأحوال بأن أقود الجيش إلى المكان الذي استشهد فيه أبي، في هذه المنطقة التي فقدناه فيها وإلى الأبد، كانت نية الانتقام حاضرة لديه حرصت على معرفة المكان الذي استشهد فيه، وهو بعيد عن هنا، كان ذلك في مؤتة بفلسطين جنوب البحر الميت. ما زالت ذكرى رحيله تؤرقني دوماً، وفي بعض الأحيان تخنقني، ولن أنسى أبداً يوم المأتم الكبير هذا، حين سقط على رؤوسنا الخبر المرعب لاستشهاده، يومها كان محمد ضائعاً، وهو سيد الكلام الباعث على السكينة، المتحفِّظ في العادة إزاء نذيب وولولة النساء في المآتم، انفجر باكيا أمام مرأى الناس، وجرت أختي

باكية، حاسرة الرأس، حافية القدمين نحوه، وارتمت في أحضانه، باحثة عن عزاء فوق صدر كان بسعة العالم، بكى ابنه زيداً حينذاك بحرقة شديدة، نعم ابنه، القائد الذي سقط شهيداً من أجل نصرة الإسلام، ونصرة أبيه، كان أمير الحملة، فتقدم جنوده وهاجم الصفوف الأولى لجيش العدو، الذي لا يحصى عدده، كان يعرف أنّ نتيجة المعركة محسومة لصالح الخصم، ورغم ذلك اندفع نحو القتال إلى أن استشهد، وبهذا أيقن العدو الذي زعزعت ثقته بنفسه، وهو يرى استشهاده، واستشهاد قادة الجيش معه، بالتصميم القوي لهؤلاء الفاتحين الجدد، الذين تَتَسَتَّر هيئاتهم البئيسة على غنى وعظمة أرواحهم.

كانت لدي مهمة استئناف الفتح هناك حيث توقف، فبعد استشهاد الابن، أمر الرسول الحفيد الآن بأن يهاجم العدو، هناك حيث أسلم الأب الروح، كأنه بهذا يقر وأمام مرأى الناس بأنني الأقرب إلى قلبه، من بعد ابنه الشهيد، ابنه الذي حرمه المجتمع منه، وفَرَّقت بينهما الموت مبكرا، بيني وبين جدِّي محمد دَفَقٌ من الإشارات، لغةٌ خاصةٌ لا يفهمها معظم الصحابة، لغة حبٍّ، لم يعد لها مكان لدى هؤلاء السياسيين التَّوَّاقِينَ للحكم، ولم تعد تجد لها مكانا في قلوبهم، هنا في هذه اللغة سكنت قرابتنا، التي حذفت من التَّدْوِينات الرسمية، ووجدت عيشها وملاذها.

أهداني محمد فرسه سبحة، المطية التي يضرب بها المثل في الرشاقة، والعدو الفريد، والتي حين تعدو تبدو كأنها تسبح في الهواء، والفارس ملتصق بها، كأنه قُدَّ منها في نسيج واحد، تفلق المدى بيسر وخفة، كأنها محمولة فوق أمواج، تصرفها قوائمها الرشيقة والوثابة، أتى اسمها من انصهارها مع فارسها، من إذعانها

التام، ومن الهالة التي ارتبطت بها بوصفها المطية المفضلة للرسول، إنها حظوة عظيمة أن تكون من نصيبي أنا، حظوة من بين أخريات، في هذا السنن المفهوم فيما بيننا، كنت في أعلى عليين، وساعة انتقامي قد حانت.

كان هذا الاعتراف يملؤني فخرا، والرقة التي تنثال من نظرة محمد، تنِزُّ في عينيَّ كل الامتيازات التي جرد منها زيد، وستظل حاضرة منيعة في ذاكرتي، أما انتقامي وهذا شكل منه، فسيكون انتقام أب وحفيده، وهما يزرعان الحياة في نسب، تفنَّن بعض المتآمرين الظالمين في قطعه.

وصلت بجنودي الثلاث آلاف إلى قرية في أقصى الجنوب، لم نلتزم بأي من الترتيبات، التي تعودنا اتخاذها إبان الغزوات السابقة، طبَّقت حرفيا أوامر الرسول، ولم أدع أي فرصة ممكنة لفتح باب الجدل حول ما نعتزم القيام به، بلغنا هدفنا دون أدنى نأمة، زاحفين تحت مثار النقع نفسه، وسط صمت الليل المدلهمّ، أطبقنا كضَوارِي على أهل المكان، أحرقنا، وقتلنا، وحصلنا على أسرى لا يحصون، دلَّني أحدهم على من قتل أبي، فكان آخر ضحية قبل أن أقفل راجعا، أخذت بثأر زيد!

لم نخض الغزوة إلا بعد وفاة محمّد، زارني خليفته أبو بكر في بيتي، وتبثني بوصفه قائدا للجند على رأس الحملة، رغم أنه كان في حاجة مستعجلة للمحاربين، ليواجه الفتن المنتشرة، التي أعقبت وفاة الحبيب المصطفى، ولأنه وفيٌّ، فقد أوفى بعهده، في احترام تام لإرادة سيده المتوفى، وسأظل ممتنا له بهذا، طلب مني أن أسرِّح عمر، الذي كان في حاجة لعونه في إدارة شؤون المسلمين، لم أنطق بكلمة، ففي الأمر كياسة كبرى من قبل رجل كان قد أمسك بناصية الأمور في يده.

لم نصل بعد في روايتنا لمجريات الأمور إلى هنا، لكنِّي كنت مضطراً لذكر أخذي لثأري بالقوة، محرراً بهذا نفسي من حنق ماحق، دون أن أحترم تسلسل الأحداث! ذكرت ذلك كأنني أنجزت الغزوة في حياة محمد، وبتحرُّرِي من حرقة أخذ الثأر، صرت مهيئاً أكثر لأروي الأحداث التي سبقت غزوتي، والتي هي زيادة على هذا، ترتبط بوفاة جدي، الذي توفي، بالفعل، قبل المعركة التي كلفني بخوضها.

كان يوم أربعاء، يومان قبل متمٍّ صفر، حين بدت عليه أعراض وهن وحمًّى، ولكن بدون خطورة تذكر، قلقت على حالته الصحية، لكنهم طمأنوني بسرعة، في الغد يوم الخميس، سرت لأراه مجدداً، فعقد بيديه الكريمتين لواء الغزوة في رمحي، وجدد لي وبإلحاح تعليماته، إلحاح فيه نذير وفاته الوشيكة! كان الحزن مخيماً على أجواء المدينة، ومهيئاً المجال للمأتم القادم، ومانحاً مسحة تبجيلية لهذه اللقاءات، حيث تشي حركات الرسول بالداء المجهول الذي يسري في جسده، أودعتُ اللواء عند أحد مساعديَّ، وسرت إلى بيتي منتظراً جاهزيّة الجند. نصب معسكر تجمُّع الجيش خارج المدينة، وبدأ في استقبال جموع معتبرة من المتطوعين الذين يعدون بالآلاف، كان أوائل المهاجرين هنا، وفي مقدمتهم كبار الصحابة، ومن ضمنهم عمر، الخليفة المشهور بالعادل، والذي كانت الفرائص ترتعد منه.

تأخر الانطلاق وكان هناك تردد ما يرين على الجميع، وفي كل الأحوال كانت الاستعدادات مستقرة، وفي يوم الأحد التَّالي، أحسست بقلق آسر، لم أتبين سببه، فسرت للتو إلى بيت الرسول، كان محمد قد فقد القدرة على الكلام، حيَّيته، فقبلني، ورفع يديه

نحو السماء داعيا لي، وفي الغد، استعاد بعض قواه، فابتهج كل من في بيته، وبدا أن الأمور عادت لمجراها الطبيعي.

يوم الاثنين، لم أبرح منزلي، نصحتني أمي أم أيمن بأن أتريث، فالرجل العظيم الذي أرضعته من ثدييها، وحملته بيديها، ورعته طيلة حياته، يوشك أن ينطفئ، بدا على وجهها تبرم الأيام السيئة، فهذه الإفريقية المتجذِّرة في الأرض وعناصرها، تستشعر كلَّ التّرددات الخفية، فهي في تواصل مع غيبها الخاص، لم تقل لي شيئا، فالأمر في كل الأحوال لم يكن مناسبا لحماسة الوداع.

في آخر اليوم، جلَّلت دكنة قاتمة المدينة، وخيَّم حزن منذر بأسى يخِزنا في أعماقنا، ولا نعرف سببه، وسارع الليل في حجب كل شيء، لم نشهد تلك العذوبة المتمهِّلة للغسق، وهو يمتلك الأمكنة، واندفعت شهب من أصقاع نائية منقضة على الأرض، لعلّها تنذر بوقوع حدث جليل، وبدأ الدهماء من الناس، الذين غسل الكهان المشعوذون أذهانهم، يتهامسون عن قرب القيامة، من جهتي فقد حافظت على هدوئي.

انشغلت بطبيعة هذه الشهب، التي طالما حدثنا عنها الرسول، ليجنبنا الرعب الذي يتملكنا بمجرد رؤيتها، شواظ من نار يتبع الشياطين، التي تسترق السمع لما يجري من أسرار في السماء العليا، وإيصاله لمن أرسلوهم، لم تكن شيئاً آخر غير هذا، فمنذ حين من الدهر تكاثر الكهان المدَّعون للنبوة، في هذه النواحي، وبدأوا في تسميم مزاج المؤمنين، حتى عكروا الأجواء، فصارت تئن تحت أنفاسهم الشيطانية، إنهم متعطشون للأنباء المثيرة، التي تغذي متاجرتهم القائمة على هراء القول، والأعمال السحرية، فهم متعودون وبدون حياء على اختلاس الوحي المقدس، الموجه إلى رسل الله،

يضعون شياطينهم في السَّديم الذي ينتصب وسطه العرش الإلهي، وبهذه السرقة الكريهة يتبجحون أمام تابعيهم المؤمنين بسذاجة بالخرافات، مدعين بوقاحة، بأنهم يعرفون ما يدور في السماء. فمنذ السيد المسيح فرض الله حدوداً، ووضع نهاية لخستهم، إذ لم يعد مسموحاً لوكلائهم بتخطي السماء الرابعة، فلا يتلقفون إلا نتفاً يستعملونها للخداع، وذلك بتلفيق ما يشبه كتبا مقدسة، وببعث الرسول لم يعد لتلصصهم إلا مفعول ضربة سيف في الماء، ولم يعد أحدهم يجد حتى شَرْوَى نقير، فالله القوي الجبار قرر وضع حد لممارستهم الشيطانية، وكان من حق آخر الرسل هذه المنة الإلهية، حتى يتسنى تحصين الوحي وحمايته من التدليس، فقد أغلق في وجههم السماء، وأمطرهم بشهب رجما للشياطين المتلصصين.

إلى أن بُعثَ آخر الرسل، كان لكل قبيلة من الجن صفها من الأرائك في السماء، كل بحسب رتبتها، وكلما حدث وحي ما، أخذ الملائكة علما به، بواسطة صوت شبيه بصليل معدل، وكانت هذه هي العلامة المتفق عليها، منذ بدء الخليقة، فيسْجدون بخضوع مميَّز عن كلِّ الكائنات الأخرى، ويخلدون لصمت الأموات، ولا يرفعون رؤوسهم إلا بنهاية التبليغ، بعد ذلك، ينظرون لبعضهم البعض، متسائلين عن مشيئة وأوامر القوي العزيز، وإن كانوا لا ينبسون ببنت شفة إذا ما قرب رب الرحمة والمغفرة، فإنهم لا يترددون في الحديث فيما بينهم، وبدون حرج، عن الأحداث القادمة التي ستقع للناس، يصل صدى حديثهم بشكل أكيد للشياطين، الذين يسارعون لنقله في حينه لسادتهم، فصدر أمر شطب أرائك الجن، ووضع حدا لهذه الوضعية، فطهر الله بذلك سماءه من كل الشوائب التي كانت تسيء لها.

ولنقل الحق، فالأمر لم ينتهي بهذا، فهؤلاء الكهنة ذووا حذق وبصيرة دائمين، ونظرتهم الثاقبة تنبؤهم بخلاف الناس العاديين والغافلين بحتمية وقوع الأحداث الجسيمة، وشياطينهم مشغولو البال، وهم يرون حركة غير عادية لزملائهم الملائكة، في الطرف الآخر.

هذا هو مصدر هذه الاستشاطة غير العادية في هذه الليلة، فالكهنة حدسوا شيئاً ما، خبر محزن شحذ شهيتهم للكوارث، فحضُّوا مبعوثيهم على تلقف أدنى التفاصيل، ولو أن السماء مصرة على إبقاء أبوابها مغلقة، لقد أفسد حضورهم الكثيف وأنفاسهم الكريهة الجو، كانوا يطوفون جماعات حول المدينة التي سكناها، متحلِّقين حول جدي محمد، كانوا بالمرصاد، والهيئات الداكنة التي رأيناها تتكاثر، تخص بالفعل مبعوثيهم المحلقين فوق أجواء المدينة، وهذا هو سر الحجاب القاتم الذي كان يلفُّها.

سَرَتْ برودة قاتلة في ظهري، وأنا أرى هذا المحفل الشيطاني، وكنت مأخوذا برؤياي هاته حين خُبط الباب برفق، ولكن بعصبية واضحة، إنه حارس الدار الذي أعادني إلى الأرض، وأخبرني بشكل مقتضب بما يتم نهجه، فقد تسلل خيال في عز الليل نحو بيت أبي بكر الخليفة القادم، والساعد الأيمن للرسول حاليا، خيال امرأة غير محجبة، أمَة بدون شك، وبما أن حارسي كان متلصصاً حاذقاً، وذا خبرة بأوساط العبيد، فقد تعرف عليها رغم حلكة الليل، إحدى إيماء عائشة المخلصات لم أتذكر لقبها، كانت حاملة لخبر جسيم بدون شكٍّ، اقتضى التسلل خلسة في ظلمة الليل.

ما الخطب؟ أمر عظيم حدث، وكان ينبغي أن آخذ علما، بعثت

رسولا إلى أبي مويهبة، المولى المكلف بالحراسة ليلا أمام باب الرسول، لكي يهنأ بالي، لم أفهم لماذا لم يخبرني بأي شيء، رغم أنني كلفته بأن يُعلمني بما يحصل بدون تأخير، ربما لم يسعفه الوقت للقيام بذلك، حزمت أمري وسرت نحو بيت الرسول.

كان لقلقي ما يبرره، فمرض الرسول تفاقم بعد أمل الأيام الأولى، وبدأنا نخشى الآن وفاته، تلك الوفاة التي ألقت بشباكها المنيعة على بيت النبوة، فمحمد الذي كان في مسارَّةٍ دائمة مع السماء، كان له في هذه الأيام، وأكثر من أي وقت مضى، نظرة مشدودة إلى الآخرة، كان عليَّ أن أتوجس خيفة، فاعتكافه صار أطول بشكل واضح في الآونة الأخيرة، عشرون يوما في رمضان لم يرَ فيها أحدا، كان الأمر أشبه بالأوقات الأولى للنبوة، حتى إن زوجاته قلقن لهذا، ولم يعرفن ما ألم به خارج حماسته المعتادة للصلاة. من المؤكد أنه كان منهكا لفرط ما جرى، ولفرط ما رأى، ربما تعب من الناس ومن تقلبهم وحبهم للنفس، الذي أجبر طيلة حياته على التعامل معه، إنَّه بصدد تقديم كشف حساب لربه؟ لكن نزول القرآن كما أخبرنا بذلك قد تم واختتم.

ها قد مرَّ شهران على عودته إلى المدينة، من حجة الوداع إلى مكة، عاد في أوج ظفره بالمجد، فالمهاجر المطرود والمنكَّل به من طرف أهل قبيلته، صارت دعوته مستجابة من قبل عشرات آلاف من المؤمنين، بل من قبل الملايين في قادم الأعوام، رغم ذلك أبدى هذا الطَّود العظيم علامات وهن، والمرض الذي سينهي حياته بدا أنه تمكن منه، والألم الذي استشعره فجأة لم يعد يفارقه.

أكد أبو مويهبة مخاوفي، فمحمد أمره فجأة بأن يسرِّج بغلته، ثم

سار إلى المقبرة، وناجى الأموات طويلاً طالباً لهم الرحمة، وطمأنهم بصوت عال على يَبَابِ ما تركوه وراءهم. لقد تلقى الأمرَ من السماء، فنهض خادمه الأمين، كان مشهدا يخلب اللب، فمحمد يفرض حضوره الكاسح على قوى الشر الليلية، التي يبدو أنها تنقشع من حوله، وهاهو يواجه الموت في معقله، حيث لا يتجرأ امرؤ على الذهاب إلى هناك، في مثل هاته الساعة، برؤيته يناجي ربه في مقبرة مقفرة، وتحت سماء كان يبدو أنها تنطبق عليه. بقي خادمه مسمرا، ولم يلفظ بحرف إلى أن أمره بالعودة، فأعانه على الصعود فوق بغلته في صمت ثخين، بدا له أكثر رخاوة حين مسه من المعتاد، وبعودته تفاقم مرضه، كانت زيارته الليلية والمرتجلة منذرة بما سيقع، وكانت ضربا من الوصايا للأموات قبل الأحياء.

وبينما كان كل من في الدار نائما، كانت عائشة مترقبة قلقة لغياب زوجها، فخروجه المفاجئ جعلها تغادر السَّرير، وأطار النوم من عينيها، وهي تنتظره فيما تبقَّى من الليل، واقفة أمام باب دارها، متذرعة في سهرها هذا بصداع في الرأس، وحين رأته قافلا أدركت بأنه مريض حقاً، أخذت يده برفق ومازحته حول عافيته، كانت قد بلغت ثمانية عشر سنة، وهو في الثالثة والستين قائلة له أنت من سيكفنني، ويصلي علي، وتدفنني ثم تعود لتعرّس ببعض نسائك في فراشي. أفتر ثغره عن بسمة، وحدها عائشة، التي كان محبّاً لها، تمتلك القدرة على انتزاع هذه البسمة من شفتيه، في أحلك الأوقات، لكنه في تلك الليلة كان موجوعا بحق، تحامل على نفسه، وطاف على زوجاته محييا إياهنّ، اشتد مرضه عند ميمونة، فاعتذر لهن، وطلب من كل واحدة منهن أن تأذن له في أن يمرض لدى عائشة، تحلَّقت كل العائلة من حول سريره قلقة صامتة.

سنده رجلان وسارا به إلى بيت عائشة، هذا ما بلغ الناس في الصباح، بدون أي تفصيل يمكن أن يطمئن على حالته، كان أحدهم قريبه الفضل، وهو رجل ذو وسامة آخاذة، يُتَوجس من السحر الذي يمارسه على النساء، رأيته في النهار رفقة أبيه العباس، عم الرسول، كان وجهه مرهقاً من سهر الليل، أما الثاني فلم يعرف من كان. يتكلم الهاشميون عن علي، صهر محمد، والخليفة القادم، ولا أملك أن أؤكد ولا أن أنفي هذا الادعاء، فأنا أعرف كم هم الذين أرادوا إلصاق اسمهم باسم القرابة للمريض العظيم، لكن الهاشميين، وهذا مؤكد، قد تعاضدوا فيما بينهم في هذه الأوقات، وعززوا بتواجدهم الكثيف كل ما يحيط ببيت النبوة، بغاية التحكم فيما بعد في باب الدخول إليه.

لم يكن أبو بكر بعد هنا ولا كبار صحابة محمد، لكنهم لم يتأخروا في المجيء، ذهبت مع عمر، الذي كان ضمن من سيسيرون معي في الغزوة، فقد أرسلت مبعوثا لدعوته. جاؤوني باللواء، فنصبته أمام بيت الرسول حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فكل شيء كان معلقاً في انتظار ما ستؤول له حال هذا الرجل الفذ الذي ترك للناس دينا لن يضلوا بعده، إن استمسكوا به، دين لم يكن البدو المحيطون بالمدينة قد وعوا بعد قدرته على الانتشار، ظلَّ لوائي منصوباً هناك، مذكراً بتصميمنا، وبصلابة إيماننا طيلة مدة احتضار النبي، أمر أبو بكر فيما بعد بأن ينقل إلى حيث أقيم بعد الغزوة، احتفظت به مغروساً أمام داري حتى يأذن الله بفراقي للدنيا، فهو دلالة الشرف الذي نلته بقيادة آخر غزوات الرسول.

انتشر خبر مرض الرسول كانتشار غبار هزَّته ريح عاتية، ومنذ الفجر امتلأ محيط الدار بالناس، جاؤوا من كل حدب وصوب،

ليتلقفوا أخبار الوضع الصحي لسيد المكان، لقد كان يتآكلهم فضول معرفة نهاية هذا الرجل الفريد الموحى له. كانوا هنا وهناك، يهمهمون بأن أمر الموت أو البقاء على قيد الحياة إلى الأبد بيده، في هذه النواحي يشكل موت شيخ قبيلة حدثاً يثير لغطاً عاماً، فالعويل والبكاء ينصهران كأنهما يصبان من قمم الجبال، وكأن عواصف شديدة ستقتلع الأشجار، بحسب زعمهم، فغضب الله يصل ذروته بموت أحد الجبابرة. والملائكة الحارسون لباب جهنم يتأهبون لقبض الخطّاء المصر على الإثم، القادم بيد صلبة.

كيف سيكون الأمر مع هذا الرجل الذي لا مثيل له، هذا الرجل الذي كان في اتصال دائم مع السماء، الذي هو محمد؟ ستكون نهايته هو، فهو الذي صار صيته ينتشر بسرعة البرق خارج بلاد العرب، مما أفضى بدون شك إلى حصول أحداث استثنائية، هل سيموت حقاً رسول العرب، آخر الرسل، المبعوث، ذي المعجزات التي لا تعد كما يموت باقي الناس؟ مثل هذه الأسئلة جذبت حشداً من الناس، المؤمنين منهم، والفضوليين، كلهم تداعوا من كل الجهات، تجمَّع معسكر بشكل تلقائي حول دار المحتضر، ولا زال هذا المعسكر في تنامي مستمر، واتخذ كبار الصحابة وأقرباء الرسول مكانا قريبا لهم، فهناك إرث عظيم يتراءى في الأفق، وكذا حرب المواقع من أجل حيازته.

الكثير منا لا يتقبل بطيبة خاطر وفاة سيده وقائده، رأيت مخلصين للرسول وصحابة مقربين رجَّتهم وفاته، لدرجة أنهم قالوا بصوت عال بأنه مات مقتولا، إن لم يكن بفعل اللحم المسموم الذي أعطته إياه امرأة يهودية إبان إحدى غزواته، فإنه عمل سحر ألقاه عليه أحد الكهنة المتعطشين للحكم، والذين قد جرَّدهم من هالتهم، فما انفكوا

في ارتباكهم يمضون أيامهم يلقون عليه سحرهم، وكذلك لا يمكن استبعاد أبداً أعيان قريش، الذين رغم استسلامهم هم وبعض المنافقين، الذين يتظاهرون بالإيمان، يمكن أن يكونوا وراء ما حل به، إنهم الآن وفي كل الأحوال يفركون أيديهم فرحاً في مكان ما من المدينة، اللعنة عليهم جميعاً.

كان محمد ممدداً في سرير عائشة، فاقدا وعيه، فدفع العباس عمه زوجاته لإعطائه جرعة دواء، ولأنه كان ينفر من شرب الدواء، آخذ على زوجاته ما فعلن به، ووبخهن على ذلك، لقد خشي أهله ـ وقد تتام به وجعه ـ بأن يكون مصاباً بداء ذات الجنب، الذي يسبب ألما رهيبا في البطن، مرض ماكر يفاجئك بغتة، ستقول الأخبار بعد ذلك، بأن الموت بسبب هذا المرض يرفع الميت إلى مقام شهادة الموت مجاهدا في سبيل الله، فذات الجنب مرض سببه الشيطان.

في البيت، حاول أقرباء الرسول مواجهة المرض المتفاقم، إذ تملكت الحمى المريض كلية، حتى صار في حالة هذيان لم تعد تفارقه باستثناء انفراجات قصيرة، أمر الرسول بإلحاح بأن يفرغوا عليه الماء من سبع قرب وسبع آبار، كما لو أنه كان يستدعي كون سبع سماوات. وضعوه في مغسل حفصة، وهرقوا عليه الماء البارد، حتى أشار لهم بيده أن كفى، فوجد راحته، وخفت الحمى، واغتنم ذلك، وخرج ليخطب في الناس ويعهد لهم، فرغم الموت الوشيك بقى انشغاله بالناس ومآلهم راسخاً.

لم يفقد الرسول بعد الوعي بمحيطه، كان مازال يعي بأن المسجد قبالة داره، فصورة الأرض العارية حين وصوله للمدينة تتراءى له من حين لآخر. لقد اشترى تلك الأرض، بمجرد أن وطأت رجله تراب

المدينة، هاربا من قبيلته المشركة والصماء إزاء دعوته، التي زاغت عن الطريق بتعظيم أصنام وآلهة مارقة، لقد حرص لتوه بأن يطهر الأرض، المدينة التي احتضنته، وليس أحسن من الجامع للقيام بهذه المهمة، هنا حيث كان القرآن يرتل كل يوم، ويتردد الصوت الجهوري والمطمئن لبلال موحداً عظمة الخالق.

أزاح محمد الستار الذي يحجبه، ليتملى عذرية البناء ربما للمرة الأخيرة، سار إليه محمولا تقريبا من طرف ذويه، ضاعفت عمامته الدكناء المائلة للسواد من شحوبه، وزادت من جلاله في عيون الجمع المتطلع له، فالصفاء الملائكي للوجه المصطفى كان رجعا للنقاء الخالص للرسول، جلس فوق المنبر، وركبتاه مغطاتان برداء، فخطب في الناس موصيا بالأنصار، يُكرم كريمهم، ويتجاوز عن مسيئهم، هم الذين أووه في الظروف الصعبة، ويخاف عليهم الرسول من نهم القرشيين، ونزوعهم للاستئثار بكل شيء، انتبه لبكاء أبي بكر، فمدحه ـ على ما قيل لي ـ بما يليق به، وأثنى على ما جمعهما من صحبة وإخاء وإيمان. أُقِرُّ بأنّي كنت منشغلا بصحة الرسول أكثر من أي شيء آخر، ولم أُعِر انتباها كاملاً لما تفوّه به في هذا الازدحام المحموم الذي أعقب خروجه. وفي الغد، تكاثرت وتباينت الروايات من معسكر لآخر، فهذا ذكر اسمه لأنه أعانه على الجلوس، وآخر أعانه على المشي، دون أن نتحدث عن تقبيل يده، كل هذا يُتباهى بذكره، فمنافع حضور هذه اللحظة الفاصلة سيتم تحقيقها في مستقبل قادم. اكتشفت في أيام الشجن تلك الشراهة إلى الحكم والقوة، كما خبرها أبي زيد من قبلي، وأدى ثمناً باهظاً لذلك، فكما يحدث دوماً لجموع فقدت قائدها وأسوتها الحسنة، جموع تجد نفسها يتيمة، تستسلم لارتجاج عميق ينبغي التفكير في إيقافه، وهذه مهمة ينبري

لها الحاذقون والفطنون منهم، الذين لا تلهيهم جسامة الأحداث عن هدف الإمساك بناصية الأمور.

كان المؤمنون زرافات زرافات يصلون ويبتهلون لله، وينتحبون مخافة فقدان حبيبهم رسول الله، كانت حركات قيامهم، وركوعهم، وسجودهم في اضطرابها، شبيهة بتلاطم أمواج في بحر لجي، بحر بشري يتراءى بيت الرسول مبحراً وسطه كسفينة مقلعة. بلغ التأثر مبلغه بالناس، حتى خيف على محمد، فنقل إلى بيته على عجل دون انتظار تعليماته، ولم يخرج منه أبداً، ضبط خدام الجامع الأمور، باصطفافهم مفسحين للرسول ممراً وسط الحشود المتحمسة، إنهم أهل الصّفة الذين يتم اختيارهم من المهاجرين الجدد ذوي الأصول المختلفة، والذين لا بيت يأويهم فيبيتون في الجامع، ويسدون رمقهم بما يتصدق به المؤمنون. محمد هو من أراد ذلك، كان هؤلاء المتطوعون على أهبة حمد الله في مفتتح وختم الصلوات، ومنذ إعلان الوجع الذي يعاني منه الرسول تجهَّمت وجوههم من الحزن العميق، ولم تكتحل جفونهم بنوم، فقضوا ليالي مرض الرسول قياماً مبتهلين لله لشفائه، كان الرسول محبوبهم وقدوتهم، لذا كانوا يرتمون على رجليه الشريفتين كلما رأوه.

اعتصر مشهد الناس الحزانى الضائعين محمد، فأعطى تعليماته لعمر الحازم، وخصوصاً لأبي بكر، الذي كان يجهش بالبكاء كلما صعد المنبر، وعهد لهما بإمامة الصلاة في غيابه.

كانت عائشة تمرر وصية شفوية من الرّسول خلسة وسط الحشد المجموع وبتريث، معزِّزة إيَّاها بدموع حتَّى تكون مؤثرة، لقد أبدت في هذه الظروف العصيبة قدرة فائقة على التواصل مع الناس،

لتبليغهم تعليقات الرسول، وأبانت عن نفاذ بصيرة مدهش. وقد أبدى الرسول بجلاء تفضيله لأبيها، أخوه وصديقه منذ بدايات الدعوة، فأعلنت الزوجة الشابة نفسها على عتبة باب بيت الرسول ناطقة فعلية باسمه، رغم الدسائس المشروعة لهذه المرأة الفذة، في ظرف شحذت فيه السكاكين. أكنُّ لهذه المرأة احتراماً كبيراً، فهي التي عرفت كيف تردُّ الصاع صاعين لكل من أراد أن ينال منها، وفرضت نفسها في أوساط تخص الرجال وحدهم، كانت تعمل على مبعدة من الأمور، ولا تبرح سرير زوجها المحبوب أبدا، إنها في قلب مجريات الأمور، متحسسة نوايا هؤلاء وأولئك.

كان هو خلف هذه العتبة التي تشرئب لها الأنظار، محاطاً بزوجاته، وممدداً في السرير. لم تتأخر فاطمة بنته في المجيء، كانت لها الهالة الشريفة لأبيها، ما أن رآها حتى تهلل وجهه، وشعَّت عيناه ببريق، بعد أن اعتقد الجميع بأنهما انطفأتا، أشار لها بأن تجلس على يمينه، وأسر لها في أذنها، فبكت، ثم عاود الإسرار لها في أذنها، فضحكت رغم الحزن الثقيل المخيم على الأجواء، أب وبنت اختليا بنفسهما، رأساً لرأس في مشهد مؤثر، إلى درجة نسيان الموت الذي ينشب أظافره في جسد المحتضر. كأن شيئاً لم يتغير في مسار حياته، كان لمحمد عادة دأب عليها، فكلما رجع من إحدى غزواته، ذهب ما أن ينهي الصلاة لرؤية فاطمة، وبعد ذلك يلتحق بزوجاته، لقد غدا هذا الرجل الفذ، الذي صار مهاباً من طرف الملوك، والذي اصطفاه الله لتبليغ كلامه، في لحظة احتضاره رقيقا وحنونا بلا حدود، حتى أنه وقد خارت قواه حاول استجماع بعض منها، لينتزع ضحكة من أقربائه، هذه الهشاشة التي تشي بكائن فيه كل فضائل الإنسان، كان بشكل أو بآخر علامة قوة حديدية لا تعير اهتماما إلا للعلاقات

الأساسية، يعير اهتماما هنا لابنته، وحين يتحسس مجدداً جسده الموجوع، يبتهل لله الذي لا يفتر عن ذكره والقرب منه، ذاك القرب الذي أضحى يفكر بأنه بات وشيكاً.

هذه هي الصورة التي كانت لدي واحتفظت بها دوماً، وهكذا، بقدر ما أتذكر، كان أبي وطيلة طفولتي، يحكي لي عن هذا الرجل، بعينين ممتلئتين بالدمع من أول مرة إلى آخر مرة، ففي كل الظروف كانت الحياة من حوله تعج بالعواطف البشرية المهمة، والأكثر بساطة، من الحب إلى المواساة إلى الغضب. امتقع وجه عائشة غيرة من الكلام، الذي همس به الرسول لفاطمة، فألحت عليها بشكل خفي، لتخبرها بما دار بينهما، بقيت بنت الرسول المفضَّلة صامتة ومتمرسة وراء سر ابتسامتها، لم تبلغها بما دار بينهما، إلا بعد دفن أبيها، فقد أخبره المَلَكُ جبريل بوفاته الوشيك، قبل مجيء ملك الموت المرعب، وهذا ما أسر به لها فبكت، ثم داعبها، وهو يخبرها بمقامها، كأول سيدة للأمة الإسلامية! هذا ما قالته. المعركة كانت على أشدها حول سرير الرسول! فكل كلمة كانت تزن ذهبا، وتتخذ حمولة في أفق توسيع دائرة الأتباع، والسلاح يمكن أن يختلف من الابتسامات إلى الدموع، والرغبة في الاستئثار بالحكم تملأ القلوب والأذهان، ونظراً لوضعيتي، فإني كنت مبعداً من هذا الشأن، فبقيت لي في كل الأحوال متعة متابعة سحار الناس حول الجثة، التي تتراءى في هذا الجسد الذي ينخره المرض، لم يكن لكل هؤلاء الفحول إلا همّا واحدا، هو إظهار أهليتهم لتولي الأمر بعد وفاة الرسول.

استمر أهل الرسول في تقديم إسعافات له رغم تحفظه، فبالنسبة له، في هذا العالم السفلي كل شيء عبارة عن روح، ففي دائرتها كان يخوض صراعه الأخير. كان المشهد أخاذا، فالحياة والموت كانا هنا

يتصارعان على من له حق الشفعة في محمد، وكان هو على وعي تام بما لا نراه نحن. كنا نراه يتحدث بصوت هامس، ويتقلب في بعض الأحيان، ليتحدث بشكل أفضل مع محاوريه من عالم الغيب، تتراوح قسمات وجهه بين الرضا والغضب، كانت قوى الشر أيضاً هنا، بدون شك، كان محمد يحرص على طهارته، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم، فهذا الرجل الذي قضى حياته مراوحاً بين عالم الشهادة والغيب، سيكون في الحياة الأخرى شفيعا لكل شيء بالقرب من الواحد القهار.

بحكم أنّي رافقته في عزلاته، وعاينت أفعاله وحركاته أثناء ارتحاله، فقد تعلمت رؤية شيء آخر في سلوكاته هاته لا يراه باقي الأنام، فبوصوله لأرض لم تطأها رجله من قبل، كان ينبهنا، ويبتهل لله ليحفظه من الشر الذي يمكن أن تحويه: حيوانات متوحشة، عقارب، حيات، وكائنات شريرة مسكونة من طرف الجن. وأنا طفل، أتذكر أني رأيت من حولي في منزل الرسول الممارسات القديمة للرقية من المرض، فإلى حدود وقت قريب، كان الناس يبخون في التميمة التي تعلق في العنق، تم تمرر الأيدي على مواطن الجسد الذي مسّه ضر، أما الآن، فالناس صاروا يلجؤون للجامع، ويأخذون الوقت الكافي ليعرفوا هل يستمروا في علاج مريضهم بنفس الوسيلة، أما المتعصبون فيوجدون في كل مكان، وحتى حين يتعلق الأمر بتخفيف الوجع عن المرض، فهم يندبون أنفسهم لطرد الشيطان من جسده.

ذات يوم، رأيت عبد الله بن مسعود، أحد القرّاء، ولا ريب في ذلك فهو عالم كبير ذو مكانة رفيعة، ومضمونة في مستقبل الأيام، يستشيط غضبا أمام أمة مسكينة كانت تعلق تميمة في عنقها، وبحركة

فطة نزعها بقوة منها. لا أحبذ أبداً ردود الأفعال هاته، التي تكرس مخاوف الشعوذة داخل الدين، كان عليه أن يدعوها إليه برفق، وأن يبين لها فضل تجنب مثل هذه الأشياء، وأعرف من جهة أخرى بأنه لا ضرر في حمل حجاب، يقي من كل مكروه، حين نعرف بأن مضمونه ليس فيه ما هو خارج عن الشرع.

بل إني رأيت المتشددين المتزايدين، يذهبون أبعد من هذا، ويحرمون البخ في الأيدي بدل التمائم، وكان محمد وهو مريض يبخ في يديه، ويتلو المعوذتين، ثم يمرر يديه على موطن الوجع من جسده، وحين عجز عن فعل ذلك، تكلفت عائشة بالقيام بتلك الشعيرة. وهكذا لم يتم القطع بفظاظة مع عادات الناس، الذين يراد تحبيب الإسلام إليهم، وبما أن هؤلاء الناس كانوا في معظمهم غير قادرين على القراءة، فالفطنة كانت تقضي إدخال التغيير وسط ما ألفوه. فالقرآن الكريم نزل بلغتهم، واحترم معظم ما دأبوا عليه من أعراف وتقاليد، ومحمد لم يحطم ولم يهجر مكان حج العرب، إنما أعطاه مضمونا وغاية من أنبل الغايات، وكذلك التميمية التي تحمل لدفع الضرر صارت حجاباً يعظم الله، ويدعو لحفظ حامله من كل مكروه، إنه يؤدي الغرض بشكل أفضل، وبهذا تدان الشعوذة.

بينما كان ابن مسعود يكلم الناس في أمر التمائم، والمؤمنون يبكون محمد المحتضر، كان القرشيون يفكرون فيمن سيخلفه. نُصِبَ سدٌّ من حول الرسول، حتى أنا الذي كان لي حق الدخول إلى بيته، ومن المفترض أن أكون أكثر قرباً منه، صرت أجد صعوبات جمة في معرفة ما يدور، كأني من أيها الناس، تصل الأخبار متناقضة، ومنتقاة من طرف الأقرباء والأكثر تأثيرا.الحق لم تكن صحة المحتضر هي

التي تهمهم أكثر، بل رغباته الأخيرة وأقواله. هل أوصى لأحدهم؟ هل أعطى إشارة أو أصدر أمرا؟

لم يبتعد العم عباس قيد أنملة عن ابن أخيه المحتضر، وكان ابنه عبد الله، وهو عالم بارز، يتلظى فوق الجمر الملتهب، وبما أنه كان متعودا على أوساط الحكم، فقد كان على وعي تام بالمخاطر القائمة، يذرع المكان ذهاباً وإياباً، في انتظار الخبر المطمئن، فقد أخبره أبوه الخبير في سحنات المحتضرين من آل هاشم بالموت الوشيك للرسول، وراح يحثه بنظرات خاصة على القيام بشيء ما ينير الطريق أمام العشيرة، فالكل كان يقر له ببلاغة تقنع أشد المتغشِّين، وجرأة مشهودة على الجهر بما يعتقد. كانت أعين آل هاشم مركزة على علي، القريب الذي منحه زواجه بفاطمة مكانة مرموقة، كان يجب إقناعه بتصدر الأحداث، بدون استشعار للخجل، لم يكن الوقت وقت تردد لذا ذهب للحاق به.

ظهر علي بوجه خال من أي تعبير على عتبة بيت الرسول، ارتمت عليه الحشود التي كانت في حالة مزرية سائلة، ومستعجلة في السؤال: هل أفاق الرسول؟ كان هذا هو السؤال الحارق على كل لسان، لكن حاول علي أن يطمئن الناس، مدعيا بسذاجة شفاءً لم يعد أحد يتوقعه، باستثناء الحشود الجاهلة والمجمَّعة في الأزقة. أخذه العباس من يده استله من وسط الناس، وعنَّفه على عناده في عدم فتح موضوع الخلافة مع الرسول، بوضوح، كان يدفعه لنقل الحق، لإجبار محمد في ظروف وهنه الكبير على أن يعهد إليه بالأمر من بعده، أما علي فكان مترددا، ويعرف أنه محكوم عليه أن يتصرف بحذر في هذه الرمال المتحركة، فهو يهاب أكثر ابن عمه وصهره، ويخشى أن يوبخه ويحط من قدره إلى الأبد. هذا على الأقل ما وصل

إلى علمي، لكن من يمكنك أن تصدقه من أقربائه، وقد استحالوا بين عشية وضحاها، إلى طامعين ضاربين أعمتهم شهوة في الحكم، فالشفاء المزعوم الذي ادعاه علي، لم يكن سوى تملص من حشود قادرة على أن تتحول في رمشة عين إلى سيل هائج، كان عليه أن يهدئ الأمور مهيئاً النفوس لوصية في صالحه أملاها صهره، وهو في كامل قواه، غير أن خصومه كانوا بالمرصاد، وما أن يبلغ شيئاً عن الرسول حتى يمحصون ويتحرون في صدقيته.

الأمويون بدورهم كانوا مثلهم مثل عباس متأهبين، وإن لم تكن لهم أوهام حول الحاضر، فقد كانوا يتعهدون في دواخلهم بشهوة غول المُقبلَ من الأيام، فبوصفهم تجاراً حاذقين كانوا متعودين على قطع مسافات طويلة، واجتياز عثرات ومطبات الصحراء، يعرفون انتظار الوقت الملائم لأخذ زمام الأمور بأيديهم، فالانتظار الصبور في التجارة، التي تُقطع فيها المسافات الطويلة يؤدي دوماً لمغانم معتبرة. كانت لهم اليد الطولى، وأنصارهم الأقوياء كثر، وتسْهل تعبئتهم، فالذهب يشد عضد الأقوياء دوماً بالأتباع، ولأن أبا سفيان رأس آل أمية فطنٌ، فقد وضع ابنه معاوية كاتبا لمحمد، وبهذا أدخله في قلب دواليب تسيير الأمة الوليدة، التي لم يعد يشك في مسارها في الوقت الحاضر. كانت ابنته حبيبة زوجة الرسول، التي تطلعه كلما سنحت لها الفرصة بمجريات الأمور، وهو ينتظر، فهناك متنافسون آخرون في الوقت الحاضر لهم قصب السبق في أمر الخلافة، ويتوجب عليه أن يبرهن على مثابرة وبعد نظر.

يبدو هذا الصراع الصامت من أجل الحكم، وهذا العنف غير المصرح به بمثابة ضرب من الفُرَجِ الخرافية، فالحزن الذي يتراءى في بعض الوجوه، والذي أملته الظروف، والإبداء المتسامح لتصرُّفات

لبقة لم ينجحا في إخفاء لمحات البريق القاطع، الذي يشع في أعين الفرقاء، مثل سيوف تنتظر الأدوار الأولى، كل حركة، بل أقل من ذلك، كل كلمة كانت محسوبة، وإن أتت من الطرف الآخر يتم تمحيصها، لاستكناه ما تتضمنه. كان آل هاشم وآل أمية العشيرتان الكبيرتان، يُقْبِلان بفرح على هذا النزال، كما لو أن من حقهما التلقائي التطلع إلى منصب يعود لهما بالضرورة. رأيت سادتهم في زمن غير بعيد في معركة حنين، يتخذون مواقف لها دلالة في الصراعات المقبلة، فبينما كان الرسول يهيئ بغلته البيضاء، التي أعطيت هدية له كان عمه العباس يمسك باللجام، وأبو سفيان يضع يده على الركاب، الحاجب والقائد العام في أبهى صورة أدائهما لعملهما، صورة أخاذة لأسياد الأمس الفخورين بأنفسهم، وهم يرافقون كخدم طيِّعين، ومراهنين على الآتي، هذا الرجل الذي مكنته العناية الإلهية من رقابهم، وجعلتهم مستعدين لتقبيل رجليه. مشهد قوي لصراع محموم حول الحكم، اتضحت معالمه في الأيام العصيبة لاحتضار الرسول، وفيما تلا ذلك، إبان عهد الخلفاء، الذين لم يعرفوا أبدا، ولم يقدروا على إبقاء هؤلاء المتعودين على القيادة على مبعدة من شؤون الحكم، كان يتوجب عليهم إبقاؤهم تحت المراقبة، والأفضل لتحقيق هذه الغاية، هو وضعهم ضمن مستشاريهم، وتشريفهم اتقاء لشرهم! إبان إحدى الغزوات ذكّر عرّاف محمدا بأن هاشم وعبد شمس جدًّا العشيرتان، قد ماتا شهيدين في غزة، من أجل ازدهار تجارة قبيلتهما ورفاهيتها. فاكتناز المال والشرف موردان دائمان للنفوذ، فهؤلاء الناس الذين يتحركون في الصفوف الخلفية حاليا، ويحرصون على أن يتخفوا وراء ستار القدسي، بما أنهم يعرفون قوته الحالية، وكنز الذهب الذي يحويه في المستقبل،

سيعرفون حين يأتي الوقت الملائم، كيف يستلون السيوف من أغمادها، ليفرضوا أنفسهم أمراء للمسلمين.

كان سادة العشيرتين يصعرون الخد لأبي بكر، أول صحابة الرسول، وأب عائشة التي يموت بين يديها هذا الأخير، فمكانته كسابق في الدخول للإسلام، وكمقرب للرسول لا تجارى. أما عمر فقد كان يقتفي خطى أبي بكر أينما ذهب، وبنته حفصة، إحدى زوجات الرسول، تسهر هي أيضاً مع الزوجات الأخريات وراء عائشة على صحته الواهنة. أما عثمان فقد تزوج تباعاً ببنتين لمحمد، ماتت واحدة في حياة أبيها، اعتنق الإسلام مبكراً، وكان لطيفاً وكريماً مع المسلمين، لذا تعلقت به أماني الأمويين في الوصول للحكم، لنقل إن التجار يشْتمُّون الربح، ويعرفون كيف يُنَمُّون ثرواتهم، بدون وازع ضمير في الدين وغيره.

كان لكل هؤلاء الفرقاء موقع قدم، أو على الأقل مخبر في بيت الرسول. استمرت حرب بلاغات فيما بينهم، بقي محمد، الذي مع الوقت فقد الكثير من قواه، تحت حراسة مشددة، كأن درعا حديديا نصب من حول الدار، حتى الإشاعات صارت تقطر تقطيرا، ولدي انطباع جلي، ولا أعتقد أنني أجانب الصواب، بأنهم لم يَدَعُوا الرسول يتكلم، وأنهم منعوه عن قصد، من أن يبلِّغ آخر وصاياه، وفرضوا عليه الصمت، وهذا الجو الآسن هو الذي قضى على كل إحساس نبيل.

فكرت مراراً في يوم الصمت كما سميته، حين أدار جدي رأسه للعالم، مشمئزا من الجشع الفاحش الذي تظهره ردود الأفعال المريبة لأقربائه. إن الموت المتربص بتكتم في أحد زوايا الحجرة، والذي

عليه مواجهته، سيُغْرِبُ في الضحك، إنه مبْتَهِجٌ لعثوره في محيطه الخاص على مساعدين مرعبين، يسَّروا عليه أداء مهمته، آه هؤلاء الناس! يوم صمت بالنسبة لرجل هبة من الله، كان الكلام هو سر نجاحه المبهر، والكلام أيضاً بالنسبة له من ذهب، لكن هاهو، وما أن تعلق الأمر بكلمة تقال حول خلافته، حتى مُنِع من الكلام من طرف أولئك الذين يحبهم، أجبر على الصمت، وعلى الركون لوجعه الذي يفتك به منذ عدة أيام. كان الأمر متعلقا بموت قبل الأوان، ولست مندهشاً لذلك، إننا نعيش دوماً أهوال الموت قبل النزع الأخير، حين نرى الأنظار المعتادة الحنونة والعاطفية، وقد خلت من الدفء الذي كان يثلج القلب، وقد صارت تنظر إليك من عالم آخر، كأنها تخبرك بأنك تنتمي لماض دارِسٍ، ذهب وانقضى، إن محمدا كان على صلة في حياته بكل أشكال النفوذ، وقد رأى نفسه يتحول إلى تركة ينبغي تقسيمها.

صمت كهذا كان بمثابة سُنَّةٍ في هذه النواحي، ومنذ زمن طويل، وقد أدى أبي زيد ثمن ذلك حين دُفِع محمد للتنكر لنسبه، أُجبِر الرسول آنئذ، وللمرة الأولى، على الركون للصمت، مجبراً على كظم أحاسيسه، كأب لابن شرعي، رأى زيد نفسه ينحط إلى مقام العبد المملوك، طرد من وسط إلى وسط آخر، هو بمثابة درك نحو الموت، أي انحطاط هذا! تعرضت أنساب مكة لضربة بمقتضاها، حرم من الآن فصاعداً الأطفال الذين تم تبنيهم كأطفال شرعيين من حقوقهم، لم يعد لهم حق في الإرث ولا حتى حق إدارة شؤون الناس، وبهذا أبعدوا إلى الهامش، من أسياد صاروا خدماً! لو بقي زيد حيا إلى اليوم لتم التعامل معه بعجرفة، ولأوكلت له المهمات التي تعطى في العادة للمملوك، رغم أنه كان قائدا عسكريا مرموقا،

وقد خبرت أنا أيضاً هذا، أُنجزت عملية إبعاده عن الخلافة مبكرا، لأنه إن بقي في مقام الابن لخلق مشاكل جدية.

لقد أدرك محمد جيداً، بدون شك، وهو في نزعه الأخير، إعراضهم عن وصاياه الوجيهة فيما ينبغي عمله، ربما لهذا السبب كلفني بحماس بقيادة الغزوة، ضرب من الثورة في وجه المؤسسة، متأخرة بدون شك، ولكنها مواتية للسياق، وتطفو بلسما للجراح التي لم تندمل بعد، وفي الجملة، يمكن اعتبار ذلك صحوة غريزية للدفاع عن النفس، سأعود لتقلبات حكاية زيد التي توضح لا بشرية رجال السلطة، فلم نصل بعد لهذا.

في يوم الخميس، كما روى أحد الشهود، طلب محمد ورغم اشتداد مرضه، بأن يؤتى له بورقة ليكتب للمسلمين كتابا، لن يضلوا من بعده، ضرب من الطلسم السحري، يذكرهم دوماً بما عليهم اتباعه، كلما كان ذلك ضرورياً. كان القائد وهو في موته، يفكر في الحياة القادمة، وفي انقسام جماعة المؤمنين، التي مازالت هشة، لم تمنعه الحمى التي تهده، من أن يفر من إكراهات الجسد، ومن أن يتعالى على مواجعه، كيف يمكن توحيد كل الفرقاء؟ حتى اليوم هم أوفياء ومخلصون، غير أن أعين الصحابة المقربين كانت مسلطة على العرش، الذي بات خلوه من الجالس عليه مؤكدا، يتراءى في أعينهم غياب حكمتهم وتعلقهم المعتادين، والقبائل والمعسكرات والأحلاف القديمة التي اعتقد بأنها اندرست عادت لتتصدر الواجهة. نفس الانشغال كان يؤرق المتجمعين حول الدار، كانوا يسألون الخدم، ويفحصون أدنى حركة منهم: هل قال شيئا، هل نطق أسماء؟ الأمر واضح، كانت الدائرة الأولى المحيطة به، تحرص على أن لا تدع

شيئاً يتسرب، فالأخبار يتم غربلتها بدقة، رقابة في مستوى الحدث الجاري، صار فيها السر سلاحاً فتاكاً.

كانت عائشة في الصف الأول، وإلى جانبها أخ لها، جاء ليتقصى الأخبار الجديدة من زوجة الرسول، وفي هذا دلالة رغبتها في الإمساك بلجام الأحداث، كان والدها أحد المرشحين الكبار للخلافة، وفي حجرتها يموت محمد، قالت ذلك علانية، مبرزة مكانتها العليّة الشرعية: «مات رسول الله بين سحري ونحري، وفي داري ولم أظلم فيه أحدا، فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألتدم وأنتحب مع النساء، وأضرب وجهي». كأن الرسول في حضنها يبحث عن أخذ نفس وحياة جديدة، نفس اقتسم في الحب وفي الموت. رغم حداثة سنها، فقد كانت لهذه المرأة ملكة سياسية فريدة، فجمالها ووضاءتها وبكل تأكيد ذكاؤها جعلوا منها أحد الشهود الثقاة على سنة الرسول، قادت الأزمات المتتالية لمرض الرسول بحكمة، حتى الحركات التي لا قيمة لها عرفت كيف توظفها لخدمة أهدافها. فبينما كان أخوها يمضغ السواك، أخذته منه ولاكته ثم وضعته في فم الرسول، الذي كان من عادتها الاهتمام بجسده، معطية بهذا الانطباع، بأن لها الكلمة العليا على زوجها، ومستغلة ذلك في تقوية روابط ذويها بالرسول، فالتداول المثلث للسواك المعني مع اللعاب الذي يستصحبه، يشير إلى مباركة الرسول لذكور عائلة عائشة، بتوسط من الزوجة المحبوبة، لقد أعطت لنفسها دوراً سحرياً في نقل السلطة، وقوّت أساسات البناء العائلي بحجر عظيم، هذه المرأة النحيفة وقفت في وجه الرجال الشداد.

الكل كان يعرف بأن والدها يمتلك مزايا مريحة، وسرت إشاعة

ربما كانت موجهة، تقول بأن ذويها جاؤوا عند الرسول بطلب منه، فعين هذا الأخير أبا بكر خليفة له، لا يمكنني تأكيد هذا الادعاء، لم أر ولم أسمع الرسول يفعل ذلك. كانت عائشة حريصة، تعرف بأنه يتوجب العمل بسرعة، أو على الأقل، في غياب تعيين واضح وجلي أن تهيأ المجال لإرباك الخصوم بشكل أفضل، لم تعدم الإشاعة التي راجت القيام بدورها، فعدد كبير من حشد المؤمنين صدّقها، لكن لم يكن المجال خالياً كلية، بالنسبة للزوجة اليافعة فقوى أخرى كان لها ما تقوله في الأمر.

خرق الأقرباء والحلفاء المقربون الحاجز الذي يلف الرسول، فالصحابة المقربون كانوا يخشون مناورات من معسكر آل هاشم، لذا فرض الصمت على الرسول في لمح بصر. صار إنساناً مثل عامة الناس في أعين بعضهم ورجلاً يهذر، ولا ينبغي أخذ كلامه مأخذ الجد، فبينما كان يلح في طلب اللوح والدواة أو الكتف والدواة ليكتب لهم كتابا، ردوا بأن الوجع اشتد به، وأنه لا يعرف ما يقول، لذا ينبغي تجاهله، وتعللوا بوجود القرآن، الذي وسع كل شيء علما، وصية الله لعباده إلى يوم يبعثون. لماذا الإلحاح في دفع محتضر عن الكلام، وهو فريسة الحمى والهذيان؟ بلغت الرسالة، وختم الوحي، وقيلت خطبة الوداع، ولم يعد هناك ما ينتظر قوله من جديد، ينبغي الأوبة والرجوع إلى الأرض، فالآن حقل النبوة أتى حصاده، وينبغي حرث حقل الملك المتسنَّى تورُّقه بدوره.

كانت عائلته منشغلة سدى بسماعه، وهو يعطي آخر تعليماته، منتظرين أن يعترف لهم بحق الخلافة علانية، علا احتجاج الناس من كل جانب، وكاد أن يتحول النقاش حول محمد إلى عراك، تحولت الحجج إلى صراخ. كان محمد، وقد أرهقه الوجع واشتداد الحمى،

يبلل يده في قدح ماء، ثم يمسح وجهه، ويقول اللهم أعني على سكرة الموت، كان يعطي الانطباع بأنه يصد بشدة شيئاً ما، يغطس يده وكأنه يغطس معها حنقه. الحمى باب من أبواب جهنم، رددها لنا مرارا، أثناء ذلك زاد النزاع من حوله فوق حده، ولم يملك القدرة على احتماله أكثر، وبحركة غيظ، أمرهم بأن يخرجوا ويتركوه في سلام.

كنت شاهدا على هذا الحدث، ورأيت عدة تساؤلات في نظرة الرسول الخائبة، والباحثة عن مواساة، وتصديق من طرف هؤلاء الناس، الذين دلَّهم الطريق وأرشدهم في حياته، ويبدو أنهم الآن لا يعيرون أدنى اهتمام لطلبه. هل عليه وفوق الطلب، أن يتوسل إليهم هو الذي صارت خصلة واحدة من شعره، ذخيرة يتقاتل عليها المؤمنون، أو أنه لم يعد غير هذا، ذخيرة يتنازع عليها، نجم أفل، والناس سيجمعون بقاياه لقيمتها في المستقبل؟ كان يبدو أنه يُسِرُّ لي بنظره الحزين والبليغ، كم يتأسَّف على غياب أبي زيد، الذي ذهب مبكراً في خدمة الإسلام. لم تكن لي كلمة في الموضوع، فمقام الابن المملوك الذي طلي ماضيه بالسواد وبالخسة، التي لا تمَّحي لعبودية أجدادي المزعومين - وأمي الأمَة التي ورثها محمد عن أبيه - ظل ملتصقا بجبيني، مما جعلني غير أهل للبث فيما يجري. لم أكن فاعلا في أمور السياسة، ولا حتى شخصا ثانويا، فقد حُسِم في المسألة ووالدي حي يرزق، كنت بلا صوت مسموع، وبإرادة محمد كنت فارساً في ساحة الوغى من أجل النصر، من أجل الإسلام، ولأشياء أخرى، لذا لم يكن همِّي الآن سماع وصيَّته، أردت وبأي ثمن رعايته وتمريضه، أن أكون قريباً منه حين رحيله الوشيك، حضور نسب وليس شيئاً آخر.

ما يمكنني أن أشهد به، باطمئنان وراحة ضمير، هو أن محمد وبعد أن مُنِع من كتابة وصيته، ركن إلى الصمت، دون أن يعقد وعيه بحركاته وبما حوله، مستسلما، لم يعد له من غاية أخرى، سوى انتظار الموت. سيترك لهم هذا الجسد المتعب، الذي جرجره معه، هذه الكتلة من اللحم والعظام، التي سيعرفون بوصفهم أبناء تجار استدرار الربح منها، ليذهب إلى الرفيق الأعلى، ويحظى بسلام مستحق.

كانت إحدى زياراتي له في ذلك الوقت، وصلت مع مؤمنين جثوا على ركبهم متوسلين لي، لأدخلهم لتقبيل يده، وإن قررت تلبية طلبهم، فإنِّي عجزت عن تحقيقه وسط تلك الحلبة. دخلت بمفردي، وما أن رآني حتى رفع يديه للسماء، ومررها هذه المرة على وجهه، ونظر إلي، كنت أعرف بأنه يدعو لي ربه، ابتسمت وعيني مغرورقتان بالدمع، حرصت على أن أبلغه امتناني الكامل، شفاني نظره من كل مؤاخذة تجاهه، فهذا الرجل يكن لنا حبا كبيرا.

كنت أعي بأنني محسود على مكانتي لديه، فردود الأفعال كانت حادة حين عينني على رأس الغزوة، أحسست باعتزاز لا حدود له، وبامتنان كامل له، وكانت رغبتي الدفينة حتى وأنا أتملى نفسي بإعجاب في نظرته، تلك النظرة العميقة لمحمد جدي، حيث يتراءى مستقبل العالم، بأن أستشهد من أجل دعوته كما فعل زيد، سألقي بنفسي أمام العدو في أول فرصة تتيحها لي الغزوة القادمة، حين ستهدأ شهوات السلطة النهمة.

وهكذا، ستظل حكايتنا نحن الاثنان، وخصوصاً حكاية زيد، مكتوبة بأحرف وفاء مطلق وتضحية، هذه هي الوسيلة لإعادة بناء

رابطة الدم، التي كانت تعوزنا مع الرسول، والتي استغلتها سلالات قريش لحرمان أبي من مقامه كابن شرعي. رغم كل الضربات التي تعرضنا لها، فإن إخلاصنا لهذا الرجل لم يَهُنْ أبدا، لقد طمأنتني النظرة الهادئة والحنونة، التي أرسلها نحوي، فقَلْبُه بقي محتفظا بالعلاقة التي لا تنفصم عراها بين الأب وأبنائه، كنت محبوبه، كما كان يحلو له ترديد ذلك أمام الناس، وكان يعرف بأنه كل شيء بالنسبة لي.

وفي هذا الآن، الذي لا يحضر فيه إلا رهان السلطة والخلافة، كان همي أنا الوحيد هو المحتضر الذي يرقد أمامي، الرسول الذي تكشَّف رحيله، وصار مدعاة لاضطراب غير متوقع. سيبقى جدي مهما تقوَّل المفسرون المتعصبون، وقصيرو النظر، كنت ممتعضا حقًا للسيوف المشحوذة من طرف رؤوس أولي القربى، الذين لم يكن غرضهم الحب أو الصداقة، بل الإجهاز على خصومهم القرشيين، وأنصارهم في المدينة كلهم متأهبون للقتال، كانوا هنا ليل نهار، وكل معسكر يدمدم من جهته سباباً تجاه من ينال منه.

كل شيء كان جاهزا من أجل المعركة، فالانشغالات الدينية فسحت مكانها على حين غرة للنقاش حول الخلافة، وجنبات الجامع التي يُتَجهَّد بها في العادة، اجتاحتها جماعات متتالية، والمفاوضات على قدم وساق، وكل زعيم آنسٌ في نفسه الأهلية للخلافة يبدي مزاياه لأتباعه وحلفائه، فبإمكان مال القوافل شراء الأصوات، وكانت وعود منح منصب ولاية الأقاليم البعيدة والغنية إحدى أهم أوراق اصطناع الأتباع. هناك رجال كنت أكنُّ لهم الإعجاب والتقدير، وكنت أرى أن طويتهم طاهرة، ولا تهتم بحطام الدنيا، تحوَّلوا في لمح البصر إلى مخططين ماهرين، مستعدِّين لنصرة من يعطي أكثر. وبدأ

صحابة مزعومون في جمع وتبويب ما سيسمى السنة النبوية، وسيوضِّبُون بحسب أهواء أسيادهم في السلطة أحاديثا، تزين لهم انحرافاتهم، وسوء تدبيرهم المؤكد. إن النفس البشرية مهيأة لاقتراف أشياء وضيعة، لذا صرت أتَفهَّمُ أفضل انزواء النُسَّاكِ في مغارات بعيدة عن صخب المدن. حكى لي زيد طويلاً عن الوقت الذي كان يقتفي فيه خطى محمد، عن بعد، حيثما كان ينزوي في غار حيراء، في الأوقات الأولى لنزول الوحي، وقد لاحظ وعن قرب أبهى مثال عن ابتعاد مؤمن تقي عن ملذات الدنيا.

أتذكر هذا الماضي المتقشف والطاهر، الذي يتداخل الآن مع هذا المحفل المؤسف، حيث لا تترك الدسيسة إلا مكانا صغيراً للإيمان، وقد ملئت فخراً بسبب حركة قام بها الرسول أمام الملأ، حركة ضمدت جراحي إلى الأبد. فما أن انتهى من آخر صلاة له في الجامع، وبما أنه أحس بوهنه، فقد جذبني من بين الناس، واستند على صدري في رجوعه لبيته، لم يختر شخصا آخر، ولا حتى علي ابن عمه وصهره، فالعلائق القوية هي تلك التي تشد أزرنا في لحظات الوفاة، بالنظر لحركته فقد طمأنني بأنه يعي صفاء انتسابي له، أفهمني ذلك بحركته تلك، وأعطى رسالة واضحة لمن حضروا الصلاة، والذين بقوا صامتين مذهولين، كأن على رؤوسهم طيراً أبابيل. وبعكس ما تداوله رواة الأخبار، فلم تكن عائشة وحدها هي التي احتضنت محمداً بين ذراعيها، حين أوشك على الموت، فأسامة حفيده حظي وأمام أنظار الناس بهذا التشريف.

نسيت الظلم الذي تعرض له أبي حين جرد من مكانته كابن، ورُدَّ إلى مقام مولى، لكن التاريخ، وخاصة تاريخنا الذي أعرف مضمراته، لا ينشغل إلا قليلاً بالحقيقة، فوقائعه في يد العشائر

القوية، والقوى المنظمة المتأهبة في كامل عدتها للمواجهة، فحتى إنْ كنت ابنا للرسول، ولكن بدون حلفاء ولا أتباع ولا تجارة رائجة، فإنهم سيتجاهلونك تماما، وهكذا رُدَّ زيد إلى دور ثانوي، وحكم على عائلته بالإبادة حين ألصق به ماض عبودي. ولا يهم في نهاية الأمر صحة ما يدعونه أو عدم صحته، فلا شيء في التاريخ موكول للصدفة، فكل شيء فيه هو من صنيع الجماعات، التي تمكنت من فرض حكمها، كان زيد غريبا بالنسبة لأشراف قريش، إذ ليس من صلبهم، ويرون فيه القدرة على خطف المصالح القادمة، والتي ينبغي أن تعود لأعقابهم، فتخلصوا منه دون اكتراث بوسيلة تحقيق ذلك، رافقت جدي مسنودا على صدري، إلى داره المتواجدة في الصف المقابل للجامع، هناك حيث سيسلم الروح.

كنا في يوم اثنين حين بلغنا الخبر، مات بين يدي عائشة في مغرب اليوم، قضى نحبه بحلول الليل، وحلت الحلكة بغيابه، والفتنة تُهدد بالاشتعال بين جموع المؤمنين.

ما أن نطق الشهادة، حتى سارعت عائشة لإرسال مبعوث كان ينتظر أمام الباب ليخبر والدها، فمنذ أن لم يعد محمد يقوى على الكلام، لم يظهر هذا الأخير. كان القائد المتوقع تعيينه، لذا كان يسهر على تدبير الأمور اليومية بهذه الصفة، يقوم بالمفاوضات لترتيب ما بعد محمد، ركِبَ فرسه وأسرع في لمح بصر نحو بيت الرسول المحاصر بالناس، أعلن العبد الذي يرافقه مجيئه بصوت مرتفع، ودفع الحشد ليشق له طريقا بينهم، كان الوقت عصيباً، ففراغ السلطة تفاقم مع مرور الوقت، وينبغي حسم الأمر بسرعة، دخل أبو بكر.

ووجد النساء منتحبات وعيونهن محمرة من فرط الدموع التي ذرفتها طيلة الليل، وخدودهن تحمل آثار الندب بأظافرهن، كان العبيد والإيماء موزعين بين أداء مهام الدفن والحزن العميق الذي لم يجدوا الوقت الكافي للتخلص منه. لم يتمالك أبو بكر دمعه، ولم يجرؤ على توبيخ كل هذا الحشد الحزين، في حجرة ابنته أزاح الغطاء الذي يلف الجثة، وقبَّل جبهة محمد عدة مرات، رأيت ذلك بأم عيني، فاشتد بكاء النساء.

لم ينتظر إعلان خبر موت الرسول وصول الخليفة المحتمل جداً تعيينه. مع شروق الشمس حمل عمر والعباس وبنوه الذين لم يتزحزحوا عن المكان النبأ إلى عموم الناس، أخافتهم الحشود المتزايدة بشكل كبير، فالمؤمنون، والكفار، الأصدقاء والأعداء، خدمهم وجواسيسهم كلهم كانوا هنا. جعل الانتظار عموم الناس متشنجة، وينبغي معالجة الأمر، أخذ عمر الكلمة وقدم إعلاناً مقتضباً، وتبعه أقرباء الرسول، وقالوا نفس الشيء كما اتفق عليه، قول كلمة في هذه الظروف مثَّل فعلا سياسياً عالياً، فلو اختير الركون للصمت لنظر له في هذه اللحظة الفارقة كاستسلام، أبان عمر عن رجولة عالية، فقد هدد كل من يفكر في النيل مما خلفه محمد من أحكام، وقال باقتضاب بأن هذا الأخير سيبقى حياً دائماً، بالنسبة لأولئك الذين يفكرون في دفن دينه مع جسده.

اجتمع كل الناس في الجامع، فأذن بلال ليجمع الناس، وليحرر باب بيت الرسول من المتجمعين فيه، كان عمر قائماً يوبخ الناس، حين التحق به أبو بكر نظر لبلال نظرة عتاب، وانتظر بأن ينزل عمر من المنبر، فالموقف خطير، وأدنى تردد من واحد منهم يمكن أن يكلفه الحكم، اجتاز أبو بكر الخطوة الحاسمة، فهو يؤدي ما يحفظه

عن ظهر قلب، وعذوبة كلامه تجهض في مهدها شراسة خصومه وتفاجئهم. تقدم بخطى واثقة، محارب شرس ذو مهابة ناسك كما وصفه البعض، كان يؤدي دوره كقائد بتلقائية تخرس منتقديه.

إن القيادة التي استلمت الأمة، الأمة الإسلامية العظيمة إن أراد الله ذلك، كانت تخطو خطواتها الأولى، ورغم الاضطرابات التي لا يمكن تلافيها لجبر الفرقة بين صحابة الرسول من أهل المدينة وأهل مكة، فقد مرّ تنصيب الخليفة بدون تبعات سيئة، إن غضضنا الطَّرْف على بعض مظاهر العنف البسيطة، إن إمامة الصلاة المثقلة بالشرعية الدينية فتحت له طريقاً سالكاً، دون أن يعي الناس بوضوح الانزلاق من الديني إلى السياسي.

لتوحيد الجماعة المنقسمة على نفسها بالانتماءات القبلية والمصلحية، لا ينبغي أن تكون القرابة من الرسول هي الحجة الدامغة في تعيين الخليفة، سيتم اختيار الخليفة من بين الرواد الأوائل، فالخلية الأولى للإسلام هي من تقلدت الحكم، ولم يكن أبو بكر سوى الوجه الظاهر. أما علي فقد ظن أن أبناءه حفدة الرسول قد منحوه جاذبية كبيرة لدى العامة، من شأنها أن تجعلهم يبايعونه بشكل تلقائي، لم يكن على خطأ في أحقيته، لكن ساعته لم تحن بعد. كان يتوجب بشكل مستعجل ومؤلم تعيين بديل للرسول في قيادة مشروع روحي، حتى يتسنى تنظيم عزاء الرسول واتباع هديه، كانت طرق إنجاز انتقال بين الرسول وخليفته ما تزال في يد السماء، فالانتقال من مساعد للرسول إلى ملك تتطلب وقتا، وأبو بكر يدرك ذلك، لذا لم ينتظر موت سيده وصديقه للقيام بارتقاء درجات في أمر تقلد الحكم، فمكانته تعود بالأساس لما قدمه للإسلام، الذي كان سباقا فيه، وتحمل كثيراً في طريق طويل يعود إلى ماض بعيد، قاده بعد كل

تضحياته إلى موقفه الحالي، لقد عبر صحراءه منذ مدة طويلة، وعانى فيها من الوحدة والغربة، وهاهو الآن يجني ثمار ذلك.

أجبر علي وقريب آخر لمحمد هو الزبير، بعد ذلك، على تقديم البيعة لأبي بكر. كُسر سيف الزبير لإفهامه بأنه أعزل أمام إرادة الحشود، لم تقل عائلة الرسول كلمتها بعد، لكن الرياح تجري لصالح عائلته الروحية، الصحابة الذين آخى بينهم محمد في الإيمان، ومن هنا ستقتلع رماح السياسة، وتغزى أبواب السلطة والقوة، لقد كانت التعبئة لمشروع قائم. فلم يكن آنذاك منصب الخلافة للوراثة، وانتصر معسكر أبي بكر، فقد حرص هذا الأخير على أن يحيط نفسه منذ الأيام الأولى لاعتناقه الإسلام، برجال من الرعيل الأول، هو صحابي فجر الإسلام الذي صدّق واقتسم ما جاء به محمد، حين كان الآخرون متشككين، ولم ينفك منذئذ يعمل للمستقبل، وكان زيد شاهدا على حضوره المخلص والمتفاني، هو الذي لم يجد في أبي بكر سوى الذكاء والتفهم، ولم يعترض على مقامه، لأنه لم تحركه كالآخرين رابطة القرابة، لقد سلك سبيلاً يفترض طول نفس مدهش، حتى وإن لم يكن يعي نجاعته، لكن المدافعين عنه كانوا يحمدون له اتساق أفعاله، ولم تدخل علاقة الدم بزواج عائشة من الرسول إلا بعد مسار طويل، ولأن عائشة لم تخلِّف قط أبناء، فإن ارتباطه بالرسول لم يجر على مستوى العقب والنسب، لكنها ونظراً لشبابها وذكائها وحرصها وارتباطها الوثيق بأبيها، فقد لعبت دوراً حاسماً حين كان محمد على فراش الموت، دوراً أهم من كونها ولدت أو لم تلد.

وحده أبو بكر الذي كان من أوائل من اعتنقوا الإسلام حضر اجتماع السقيفة، الذي كان يروم تعيين القائد القادم، وهو من نال هذا الشرف، الكل كان غائبا. خديجة، تلك المرأة الرائعة، التي لم يكن

ممكنا بدونها أن تبلغ دعوة محمد مداها ونضجها، هي التي احتضنت في البداية أبي، كانت قد ماتت منذ زمن طويل. أما علي، فلم يلتحق بالاجتماع، وفضل البقاء في داره مع فاطمة، وأجبر بعد ذلك على مبايعة الخليفة، تأخر بيوم واحد عن الآخرين، لكن الأمور سويت بسرعة، رغم إذعان زوجها ففاطمة ابنة محمد لم تتقبل أبداً ما جرى، ماتت مبكراً جداً، ستة أشهر بعد وفاة والدها. مات زيد هو الآخر، وفي كل الأحوال فقد جرد من مقامه كابن شرعي لمحمد، وأنهي في مهده حقه في الخلافة، بمعنى أنه لو لم يتعرض لما تعرض له، لكنت وقد مات في قائمة الخلفاء المحتملين، سمعت عائشة تلك المرأة القوية ثاقبة النظر، تقول يوما لو لم يمت أبي، لعينه الرسول خليفة من بعده، لكن كيف كانت هي نفسها ستتقبل قراراً كهذا؟

رغم أن الأمور قد بدت صنيعة تسويات وتفاهمات سابقة بين من تقلدوا زمام الأمور، فقد لزم يومين، الاثنين يوم الوفاة، واليوم الموالي لإنهاء موضوع الخلافة، ومبايعة أبي بكر. بقيت مسألة دفن محمد وهو ممدد في سريره معلقة في أيدي الأحياء، وُضِع جانبا بشكل تام، في انتظار تتويج مساعده، فحضوره آنئذ كان ثقيلا، وحتى يموت الملك بلا رجعة فينبغي أن يهتف بحياة الملك الجديد، «مات الملك عاش الملك» هذه قاعدة تقتسمها البشرية جمعاء. ما أن عين الخليفة رسميا حتى صار بالإمكان الالتفات لتجهيز الميت للدفن، فمحمد لم يعد آنذاك رهانا، وعلى العائلة الآن التكفل به، جرت عملية تغسيله يوم الثلاثاء عند مغيب الشمس، سمعت عدة مرات أن الأيدي التي أرادت لمس الجسد المقدس تشل، وأطعن بالتزوير في قول كهذا مجرد من كل صدق.

ومع أن السنن تقضي بغسل الميت وهو عار، فإن محمد غسل

وهو يلبس رداء، خجلاً منه وتعظيماً له، كنت من بين أولئك الذين غسلوه، احتجت زوجاته بأن مقامهن يؤهلهن للقيام بذلك، لكن الرجال قرروا الاضطلاع بهذه المهمة. حرص آل هاشم وقد أبعدوا عن السباق الراهن حول الحكم، أن يراكموا أكبر عدد من النقط في قرابتهم من الرسول المتوفى، فمن شأن ذلك أن يكون حاسما في المستقبل، وقد شهد التاريخ على حصافة ذلك. شكلت المجموعة بسرعة: العم العباس، واثنان من أبنائه، علي وأنا، وصلاح وهو عبد للرسول. طلب أحد الأنصار بأن يكون معنا، فقبلنا عملا بروح الإخاء بين المهاجرين والأنصار، تكفل علي بغسل الجسد، وكنت أنا والعباس نساعده في تحريك الجثة، وصب الماء.

الشخصان العزيزان على قلبي يرقدان الآن في قبريهما، عدت إلى بيتي، وأنا غارق في حزن شديد، أبدى الهاشميون الآن ودا اتجاهي، فقد جردوا اسمي العائلي من كل مادة قابلة للاشتعال، وبإمكانها إلحاق الضرر بهم. سيدعونني هم والخلفاء والآخرون حين سيحتاجون إظهار عظمة من دفنوه، لقد تواجهوا فوق وسادته لوراثة تركته الثمينة، والكنوز التي تحويها، وأرفض أن أكون أداة في أيديهم، فأنا أعرفهم جيداً، لذلك امتنع عن الانسياق وراءهم. الله أكبر، غدا سأذهب للجهاد في سبيل الله في آفاق بعيدة، داخل هذه الصحراء التي لا حدود لها، سأغرق حزني في ذكرياتي مثلما يغرق الشاعر في كأس المدام، وهو يعدد فضائله، سألتحق بزيد أبي، وأنا أشق بسيفي هذه الفيافي المجهولة، الآهلة بالرسل والحجارة، هناك حيث تعرف على محمد لأول مرة، هناك حيث تعرف على منقذه.

ابن القدر

في الطريق إلى الشام التقى محمد أبي، إذ كان مندوب زوجته خديجة في قافلة تجارية، وهو بعد فرد مكي بسيط. ففي طريقه التي سيّجها القدر، تراءى له من بعيد فتى ذا سحنة جادة، وسمت واعد، ملتصقا بامرأة يصعب تحديد عمرها في ركن قصي من الصحراء العربية القاسية، بلا معالم بائنة. لقد أثار انتباهه، كانت المرأة ذات وجه شاحب جداً، غضنه بفظاظة جوع دام طويلا، تمد يدها لهؤلاء القادمين، الذين بدوا لها كأنهم هبة من السماء، كانوا في معظمهم تجارا، استنجدتهم برعونة، تشي بأنها غير متعودة على ذلك.

أبقى الطفل عينيه منكستين إلى الأرض، يرفعهما خلسة من حين لآخر، وهو لا يقوى على احتمال جور القدر، الذي رماهما بلا رحمة في أيدي الغير، يظهر ذلك من الغيظ الذي يملأ نظرته، غيظ يشي بتمرد فطري ولد معه. ربما كان متعودا على شيء آخر، ولا يتفهم بعد اللامبالاة إزاء مصائر الناس، ولا يتقبل ما يقع بطيبة خاطر، كانت المرأة تعتصر يده، كأنها تدعوه لرشد لم يكن بإمكانه ادعاؤه في سنّه ذاك، كانت تخاف في هذه الومضة من الوعي التي تبقت لها، من أن يهرب في هذا الهباء، وينفلت من بين يديها. ودون أن يفكر محمد في هذا المشهد الذي يخزه بعمق، انتظر تفرق الجمع، ليقترب منهما، ويتقصى أحوالهما، بعيداً عن الشفقة والبر،

كانت هناك جاذبية غريبة تدفعه نحوهما، لم يكن يحدس بعد ما يخفيه القدر، ولم يكن آنذاك منشغلا بشيء، ولم يكن بإمكانه تخيل ما سيولده هذا اللقاء من حب وضغينة.

هذا المكي، الذي كان ما يزال في العشرينات من العمر، غير أنه ناضج ومجرب بما يكفي، كانت له هالة غامضة، لا تخطئها عيون الملاحظين الدقيقين، وتلفت نظر كل من مر بالقرب منه. كان مشهوراً بتكتمه، وصدقه، وتصدقه على المحتاجين، وقد نفح هذه المرأة قطعا نقدية، وساءلها بنظرته الحنونة، وبتلك السماحة المثلى، التي دأب عليها، والتي كانت تثير إعجاب كل من يخالطه.

وقد كانت هي مصدومة لقسوة الحاجة، والقهر الذي رمتها الأقدار في براثنه، فبادرته بهذر أقرب للهذيان، يا للغرابة، لقد أظهرت قدرة في إطلاق سيل كلام عرمرم، لا يمكن حصره، وحرصت على تبليغه له، فهذا الرجل قد نقل لها، بدون شك، ذلك الزخم من الغموض. فهي وابنها هربا من غارة نهب، تعرضت لها القافلة، التي هاجمها بدو ملثمون، ونهبوها عن آخرها، وحملوا معهم ممتلكات وأسرى، كانت تحكي بشكل آلي، كأن لسانها ينقل عن غير وعي مشهدا نحت في ذاكرتها، وحدها المعجزة ـ بحسب قولها ـ يمكن أن تفسر سبب وجودها هنا، فبينما كانت هناك، هي وابنها، ومرافقوهم في القافلة، مرتعدين من الخوف، لم يسط عليهما اللصوص، يبدو أن هؤلاء لم يفطنوا لحضورهما بين الضحايا، فحجاب غير مرئي ـ لاشك في ذلك ـ حال بينهم.

لقد سارت في تلك القافلة لتزور عائلتها، التي لم ترها منذ مدة طويلة، فوجدت نفسها بدون حماية، ودون زاد، جائعة، وفوق ذلك

لديها طفل بين يديها عليها أن تعتني به، فهو حُشاشة كبدها، الذي لن تفترق عنه أبدا، وما أن انتهت الغارة حتى بقيت مرعوبة ومتجمدة، مع الناجين الآخرين، تنتظر طلوع الشمس. وبدون سند قررت أن تسير إلى الأمام، وأن تسبح في شساعة الصحراء المترامية أمامها، على أمل أن تعثر على منقذ، وعلى أمل إبقاء الأمل نفسِه، وقد بقيا على قيد الحياة، بفضل فارس صادفهما لحظة تجواله، فتمسكا برفقته، لأن لا حل لهما غير ذلك، كانا يأكلان من فضلاته، ويستفيدان من رفقته، لم تكن له نوايا مسبقة في البداية، فحالة المرأة لم تكن توحي بأي شيء. لكن نواياه تغيرت بشكل تدريجي، وركز اهتمامه على الطفل، بدأ يبقيهما تحت نظره، ويمد من حين لحين يد العون للصغير، كأنه يحدد معالم ملكيته الخاصة، ويمنح نفسه حق شفقته، لقد خرج من لامبالاته الخيرية، مثبتا سهره على الأم وابنها، المثيرين للشفقة، التائهين في الصحراء والمعرضين لموت أكيد.

وصلت المرأة إلى هنا مهدودة، كانت تحمل الطفل فوق ظهرها، كلما أبدى علامات تعب، والآن، هاهي تنتظر ولا تعرف لماذا، مع الطفل والفارس، الذي لم يعد يفترق عنهما، فهو وحده بإمكانه أن يخلصهما من شرك البؤس والهجران، الذين يطوقانهما. لقد فقدت الحس بالاتجاه، ويبدو أن ذهنها أصيب بلوثة، بسبب ما تعرضت له، مخبولة، لاشك أنها كانت كذلك، فعينيها الزائغتين وحدهما يثبتان ذلك، لمس محمد يديها، فأنار برق خاطف وجهها، فهذا الرجل الذي لا تعرفه رق لحالها، ويبدو أنه صادق جداً، وطيب جداً، منحها لمسُه المسكِّن وحضوره هدوءاً داخلياً، يبدو نشازا في نار جهنم التي نزلت لها، وفي ظل القدر المعتم الذي ألم بها، لقد أحست حقًا بالمعروف الذي أسدي لها.

وسرعان ما صار لها يقين، بأن هذه اليد الممدودة هي يد المنقذ، فكل الدعوات والنداءات التي ردَّدتها في نفسها حين نزولها هذا الجحيم، ومهما يكن الإله الذي تلقاها، فقد استُجِيبَ لها، وها هو الشفيع أمامها. أسرَّت له بارتباك، وبصوت متقطع متعب، وبلّغته كل مخاوفها، وأبلغته وصيَّتها بصوت مسموع، ليوثق ذلك التاريخ، لقد أوهنها ما تعرضت له، وكانت تئن تحت وطأة ما قاسته، لم تكن تأنس في نفسها القدرة على المواصلة، لم تعد قادرة على ذلك، وستموت بدون شك، استماتت من أجل ابنها الغض، الذي خافت عليه من الكواسر المحلقة في الأعالي فوقهما، ألقت نظرة مواربة، لم تصل بها إلى مبتغاها، تجاه رفيقهما الذي تسمر وراءهما، يسمع القول في هيئة مالك شرعي، كان الطفل غنيمة ممتازة، يسهل أخذها، ويسهل بيعها، وبعد ذلك تملكها. أبلغت المكي كل مزاياه، بحماسة شديدة، لم تتحمل عيش هذه اللحظات المأساوية، إلا من أجل إيجاد مخرج لابنها، يمكن تخيل هذه المرأة بدون عناء، في سياق آخر، الوجه محمر من الانفعال، ومشع بالفخر وهي تتحدث عن ابنها سامعين مطرقين، لكن جسدها المهدود لم يعد قادراً على مثل هذا الترف، قالت وأعادت بأن ابنها أبدى استعدادات مبشرة كفارس، وأنه تعلم القراءة والكتابة بفضل رهبان خيرين، يسكنون بالقرب من بيت والده، وأيضا وأيضاً...رفع الطفل عينيه تجاه محمد، كما لو أنه يريد أن يعضد أقوال أمه.

هناك شيء موجع في هذا المشهد، الذي يعكس حالة الإنهاك التام لهذه الكائنات المعذبة، بدت المرأة كأنها انسحبت مسبقا من الحياة، وغاصت في غياب مؤذن بالموت الوشيك، وقد بددت آخر قواها في كيل الأوصاف الحميدة لابنها. كحت بصعوبة، وبصقت

الدم بعد ذلك، أقلقت الحمى التي اشتدت عليها محمد، ثم تكلم الرجل، كانت المرة الأولى التي يدخل فيها المشهد، قال، بصوت مسموع للمحيطين به، بأن حالتها لم تنفك عن التفاقم، منذ أيام حين كانوا في الطريق، من جهته فقد حاول كل شيء، وضحى بوقته الثمين، وتخلى عن وجهته الأصلية، ليرافق هذين المسكينين، اللذين دخلا قلبه، لقد تخلى لهما عن الماء، الذي في قربته ليروي عطشهما، وساعد في حمل الطفل، وعمل على إسعاف المرأة، .وإن صدقوه، فوصولهما أحياء إلى هنا معجزة في حد ذاتها.

كانوا يتوقعون موت المرأة من حين لآخر، وهو احتمال مبتذل في هذه النواحي، لا يشغل بال أحد باستثناء القلائل، الذين جمعهم القدر من حولها، فيوميا يهلك الجوع والعزلة والشمس الحارقة رجالا أشداء، وأكثر قوة من هذه المرأة الهزيلة، التي يوشك عمرها أن يتقضَّى. فالتيه الطويل في الصحراء بدَّد كل قواها، لم تعد تفكر إلا في طفلها، وقد أيقنت بهلاكها، ، مثل عدَّاء متعب، لا يفكر إلا في قصب السبق، ورغم ضياع قواها فإن غريزتها الأمومية، دفعتها للاستماتة في الحفاظ على حياة ابنها، مقوسة كانت، تستنفد كل ما بقي فيها من قوى، ولم تستسلم إلا حين وصلت إلى أقصى ما يمكنها احتماله. صار عبئها غير محتمل، وأثر على قواها الذهنية، مما جعلها تدخل في ضرب من الخدر العميق، ستهلك وهي على هذه الحالة، فمسارها وصل إلى منتهاه، وقد بلغت هذا المعسكر المرتجل والضائع في الصحراء العربية، والذي نصبه رجال عابرون، كأنه كان عليها أن تبلغ رسالة أو تضع مولودا: زيد أبي الذي رأى النور. لم يعد لها مكان تذهب له، ولم تعد تعرف من هي، لقد فقدت ذاكرة نسبها، وحده ابنها يمدد حضورها، ويشهد على آدميتها:

أم في أقسى إحباطها، لا تفكر إلا في صبيها، وهو لا يتكلم، ولا يقدر على الحركة بعد، وينتظر أن يرى.

ولادة جديدة تتراءى له، والمخاض يجري في هذا الزمن المتوقف الغامض، فنهاية أمه في هذه المقبرة المحبطة تُوقِعُ نهاية ولد جاء من مكان ما، وتفتح أمامه مستقبلا جديدا، مفعما بالوعود الكبيرة، وذاكرة أمه والماضي الذي اندس وراءه، ستدفن معها في بواطن الأرض، التي قادها لها حظها العاثر، الذي لم تكن قادرة في تلك اللحظات العصيبة على تفهم شيء منه.

أنا أسامة، حفيد هذه المرأة التي ذابت في هذا الغياب الجهنمي، وأرتطم بجدار أصم كلما تعلق الأمر بها، فحبات النرد قد ألقيت في ذلك اليوم مع رحيلها إلى العالم الآخر، وكل الفضول الحارق، الذي أبديته طيلة وجودي، لم يقدم لي أي فائدة، لكي أصل إلى ما وراء ذلك اليوم المرهق، لكي أحفر أبعد من ذلك اللقاء. أنبني أبي بشدة، وهو يراني أدأب على تحري عالم غائم بالأشباح، لم يكلمني أبداً في الأمر، وبدون شك لم يكن له ما يقوله، لأنه هو نفسه لا يعرف شيئا، فحياته بدأت في هذا المكان الذي توقفت فيه القافلة بشكل مرتجل، حيث دفعته الصدمة التي كانت قوية بالنسبة لسنه، لأن يولي وجهه كلية نحو المستقبل، فحُجب الماضي عنه والأم كذلك. وقد أبدى النسابة خيالاً خلاقاً جانحاً، سنوات طويلة بعد ذلك، وهم يصعدون بعيداً في تعقب أجدادنا أنا ووالدي، بتفاصيل غزيرة عن ذوينا، حتى يتسنى إبعادنا ما أمكن عن الرسول، وبدون أي حرج، أحصوا شخوصا ابتدعتها أذهانهم المعطاءة في الكذب، لا أعرف أحداً من الأقارب الذين منحوا لنا، ولا أقر بأنني رأيت أحدهم أنا المعني الأول بهذه السلسلة.

اسم أبي زيد، اسم في حد ذاته خصب، أكثر من سلسلة النسب الأكثر جزالة، فهذا الاسم في لغتنا، يعني الغنى والوفرة، والزيادة والخير، كما لو أنه ولَد نفسه، كان هو وحده ثمرة هذا اللقاء، نعمة أخصبتها الصدفة، ووهبت هذا الصبي، الذي ولد بمجيء هذا الرجل العظيم إلى هذه الأصقاع اليباب، وكما أن الإسلام وُلد مع الهجرة، فكذلك زيد وُلد في تلك اللحظة، التي تدشن البداية، وتتضمن النهاية، وكل ما سبق ذلك التاريخ ستلفه العتمة مطلقا، فمحمد لم يعلن أبوته لزيد هكذا صدفة.

ماتت جدتي في ذلك اليوم، وأمام هذا المشهد المحزن، لجأ محمد إلى خيمته التي كان يحرسها أحد العبيد، لقد جاء هنا، إلى هذا المأوى المرتجل في الطريق مع تجار آخرين مكيين، لقد أوقفت سيرهم عاصفة رملية شديدة، وأجبرتهم على التوقف هناك حيث لم يتعودوا على التأخر. علامة قدر، هكذا كان محمد يحس بكل طارئ، ويأخذه دوماً مأخذ الجد، لم يتناول طعاما منذ الأمس، فقد استغرقه التفكير طيلة النهار في مآل الناس، قدم له خادمه ومساعده ميسرة، عبد لزوجته خديجة وضعته رهن إشارته، تمراً وكأس حليب ليقيم أوده، مذكراً إياه بإلحاح سيدته عليه في السهر على ذلك.

لم يجد الوقت للأكل، فقد دعاه ذلك التجمع حول المرأة، وما تناهى لسمعه للخروج من الخيمة، كانت الميتة ترقد في أسمال رثة، تلبس ثوبا بلون التراب ملطخا ومثقوبا، وكان الطفل يقف قرب الجثة، كأنه يحرسها، لقد أكمل عشر سنوات بحسب أمه المتوفاة، كانت عيناه تنظران تجاه محمد، يبدو أنه كان في انتظاره. كان الرجل ممسكا بيده بقوة الآن وقد ماتت أمه، تطوع مجموعة من الرجال، وحفروا قبراً للمتوفاة، ورُتلت عليها صلاة باسم إلهة قرشية، اسمها

العزة. بقي محمد صامتا، مشبكا يديه، وما أن دفنت المرأة، حتى اقترب الحارس الفظ منه، وأسرَّ له في أذنه ببعض الكلمات، تعلقت بدون شك بالطفل، أذعن محمد لكلامه، وأشار لميسرة بحركة خفية، وأمره أن يعطي الدخيل شيئاً ما، هرع العبد إلى الخيمة، وبعد هنيهات خرج وطلب من الرجل أن يلتحق به، فأمدَّ له قطعا نقدية، يبدو أنها أرضته، وأدخل الطفل إلى الخيمة وقدم له الطعام، لأن عليه أن يسترد قواه قبل استئناف الطريق.

هذا تلخيص لجذور عبودية أبي المزعومة، تغمده الله بواسع رحمته، إلى ذلك الحين كان طفلا تهدهده الرقة والحنان الأمومي، فوجد نفسه مستبعداً بطريقة فظة ومرعبة، طفل حرم من يدي أمه بسبب جشع الرجال، وقساوة الظروف، يمسك به رجل شرير، لم يبتعد عنه إلا حين أخذ بعض القطع النقدية، طفل يُشهد على عذاباته، حمدا لله، أحسن الخلق: رسول سيزعزع بعد ذلك عروش الملوك، سيمنحه قَدَراً استثنائياً، وقلباً محباً في دفء بيت، سيجد فيه التواطؤ والصداقة.

كان زيد بصدد الخروج من عقده الأول، وسيدخل بسرعة في هذه الحياة الجديدة، التي انهالت عليه، وسيعيش سنوات من الهناء والعز، قبل ذلك الألم الذي عاناه بصمت حتى آخر أيامه.

عمد الإخباريون إلى كتابة، وإعادة كتابة هذه الواقعة على هواهم، حُبكت الحكاية، وتم التدقيق في ثناياها لأهداف سياسية، وقد ارتكزت ـ كما في مناسبات عديدة ـ على سلطة النص المقدس، ولن تجد الأجيال القادمة إلا هذه الشهادات الكاذبة، وهذه الحقائق المزيفة. لذا عمدت إلى تقديم روايتي أنا، لما حدث لعموم

المؤمنين، وليس لي أي هدف سوى إنارة ما وقع، فشغفي بالحقيقة يمنعني من أن أكتمها، فسرُّ لقاء زيد بمحمد، يكمن في الجاذبية العاطفية العميقة التي قربت بينهما، وأقنعت كلاهما بأنهما خلقا لبعضهما. فَهم محمد ذلك أكثر من زيد، بحكم مساره في الحياة، ولم ينس ذلك أبدا، ويبدو أن إحساساً ملائكياً مسه في ذاك اليوم، وهو يراه يقتحم حياته كأنه ينزل من السماء، لم يكن بإمكان الواعظ الذي سمعت كلامه في المسجد الكبير بدمشق، لا هو ولا آخرين رأيتهم على المنابر، تفهم مثل هذا النوع من الأحاسيس، فهذا الباب موصد أمامهم، ديدنهم الوحيد هو توزيع الآيات بدون تدبر ولا نظر.

حكت لي أمي، أم أيمن، عدة مرات هذا المشهد، فقد أخبرها محمد وحدها ما جرى في أدق تفاصيله، كانت هي من حضنت باستعداد فطري زيد، منذ اللحظة الأولى التي اجتاز فيها عتبة الدار، كانت ما تزال شابة، وستصير بأمر من محمد، إذ كانت من إحدى إيمائه، الزوجة الأولى لزيد. كانت متزوجة من رجل آخر، وولدت منه طفلا، أيمن، أخي من أمي، ومنه جاء لقبها، وبعد ذلك بمدة طويلة، ولما اجتاز زيد العشرين من العمر اتخذها زوجة له.

وُلدت من هذه الزيجة، وقد ذكرت لي بالمناسبة، أنها رافقت أمينة أم الرسول، حين ذهبت لزيارة أعمامها بالمدينة، وقد ماتت في طريق العودة وهي تحمل بين يديها الطفل الذي سيصير فيما بعد رسولا. وفي هاته الأوقات الصعبة التي اختفت فيها الأم تكلفت أم أيمن بالطفل الذي لم يراوح بعد الست سنوات، كانت مربيته التي سيناديها دوماً أمي. ولقد كان لزيد الذي ماتت أمه في الصحراء امتياز احتضانه ورعايته، حين وصل، من طرف اليدين الكريمتين لهذه المرأة التي يعتبرها الرسول أمّاً، امرأة يقف لها الخلفاء إجلالا

وتعظيما لذكرى محمد. لم نصل بعد إلى هذا، لكن الأحداث الموازية جديرة بالذكر، فالموت الذي يلف قلب الصحراء أودى بأم الأب، وبعد ذلك أخذ أم من اختاره بحرية ابنا له.

ما أن توقفت العاصفة، حتى هرع أفراد القافلة لإعدادها بسرعة شديدة لمواصلة السير، كانت القافلة في طريق العودة إلى مكة، حيث ينتظرها بنفاذ صبر كل من وضع رأسمال فيها، وبرؤية الوجوه المهللة والمستبشرة، فالأرباح ستكون كبيرة، الأمر الذي سيسعد العائلات الكبيرة في مكة.

كان أبو سفيان، رأس آل أمية، الذي يسير القافلة، يفرك يديه لفكرة ما سيجنيه من ورائها، فمستقبل عشيرته يتراءى مشرقا، لاشك في ذلك، قام بجولة تفتيشية في طلائع القافلة، وهو يستعرض مباهاته لا أكثر لإرضاء نفسه. رنا إلى محمد، حفيد أبي طالب، من آل هاشم، هاهو أحد شبان قريش المميزين، قال محدثا نفسه، الذي تزوج مؤخراً بامرأة مرموقة من مكة، امرأة ميسورة، خديجة بنت خويلد التي يعرف جيداً عائلتها. كان محمد جديراً بالاحترام، وكانت له نزاهة مشهودة، استحق بها لقب الأمين، الذي لا أحد يطعن في مصداقيته، انتبه أبو سفيان لانشغال محمد في التفكير، وهيامه في السماء والسحاب، يبدو أنه لا يرى الناس من حوله.

مسد أبو سفيان لحيته المخضبة بلون الزعفران، كان لسيد القوم هذا، قائد الحروب، والتاجر المتمرس، حس يتشمَّم به الصفقات الناجحة والسلطات النابعة من الدماء، التفت مرة أخرى نحو الهاشمي، فاستولى عليه قلق مبهم، وهو يرى هذا الرجل الهادئ، الذي يصعب استكناه ما بداخله، وتملكته صورة وحكاية أسلافه،

الإخوان من جهة الأم، هاشم وعبد شمس، الذين ولدا أحدهما ملتصق بالآخر، لكن الدم فرق بينهما، منذراً بالحروب الضارية التي تواجهت فيها عشيرتاهما. بلبله تسلل قصة الدم إلى ذهنه، لم يكن عليه أن يضع نفسه في مثل هذه الحالة وهو يفكر في أقربائه، وقبل كل شيء، فقد كانوا كلهم تجارا، بنوا ازدهار قبيلتهم، جرَّ خفية لجام ناقته، واتخذ ضمكانه في مقدمة القافلة، يبدو أن الأحاسيس التي عبرت ذهنه وهو يرى محمد، قد تنذر بمستقبل حمّال لأسرار عديدة.

يجهل أبو سفيان كل شيء عن المشهد المحزن، الذي عاشته القافلة في توقفها، قبل أن تواصل السير، فقد كان في خيمته، خيمة القائد، ليأخذ قسطاً من الراحة، بدا له أنه يستحقه، جرت تلك الوقائع المعنية على هامش الموكب، تحت نخلة معزولة، بعيداً عن أنظار رفقاء القافلة، المهتمين بحالة البضاعة أكثر من اهتمامهم بأي شيء آخر. رغم أن المستقبل يجري في هذه الأماكن الهامشية، التي يرتادها القليل من الناس، فهنا انقضى عمر امرأة، وتبع طفل رسولا قادما، وصار ابنا له، ويظهر على إثر هذا الحدث، مفارقة كبيرة تلفُّ مكة، مدينة هؤلاء المسافرين، إذ سيعرف تاريخ هذه الأصقاع مهده المظفور بقوة، بين هؤلاء الناس البسطاء، دون أن ينتبه متصدرو الأحداث لذلك في البداية، وإلا حولوه لقصة محاكاة ساخرة.

لم يكن لمحمد آنذاك، من انشغال سوى الاهتمام بالطفل الذي يركب وراءه، لم يتخلص بعد من أثر ما جرى، فما أن دفنت أمه، حتى تعلق به بيديه وعينيه، ولم يترك له من إمكانية أخرى غير أخذه معه، كلف ميسرة بتعويض الرجل المجهول، يفضل كلمة «تعويض»

على كلمة «أداء ثمن»، فالرجل أدى خدمة حقيقية، وينبغي مجازاته، وزيد ليس بضاعة تباع وتشترى.

نداه الطفل توّاً «أبي»، الكلمة الأولى والوحيدة التي تفوّه بها إلى الآن، يا للقدر الذي لا يصدق، القدر الذي وضع في طريقه طفلا، فبتوقفهم الطارئ استرعى الطفل اهتمامه، واستولى عليه حدب ذو جذور غامضة، وشيئاً فشيئاً سرى في كل جسده، كان يحس بنفسه ترق ما أن مس الطفل، وها هو ملتصق به الآن وهو فوق راحلته، كأنه جزء من ذاته، لقد أردفه وراءه دون أن يفكر، والأشياء تبدو مقدرة، ومحمد يذعن للقوى العليا.

هكذا عرف أبي الرسول، بكل تأكيد في الشدة وليس في العبودية، في حال من العزلة وليس في حال مذلة الاسترقاق، فزيد لم يبع في سوق، ولم يلطخ باحتكاكه ببائعي المواشي والعبيد، ولم تتداوله الأيدي كشيء بدون روح ولا عاطفة، حتى يصل في الأخير عند خديجة التي أهدته لزوجها محمد. وكل ما تم ابتداعه في محطات متشابكة من حياته قبل لقاء الرسول، كان بهدف ترسيخ صورة سيئة في الأذهان لشخص غير أهلٍ بمن سيصير والده، مما خلق مسافة بين الأب والابن، وجعلهما نوعين اجتماعيين، لا شيء يوجد بينهما، كان يتوجب إيجاد سمة من الهوان والمذلة في أسلافه، وفي مساره، للتخلص منه نهائيا، وصرفه عن اتجاه من يمتلك شرف أصول أجداد قُدَّت من صفاء ورقي مرموقين. ابتدعت العبودية لهذا الغرض، لحرمان أناس أبرياء من حقوقهم المشروعة، وجعلهم خدما للآخرين، فالعبد في تقاليدنا كائن مليء بالاعوجاج والمثالب، وينبغي بالتالي الحذر منه، لكن هذه مسألة أخرى سأتكلم عنها لاحقا.

كانت إرهاصات اللقاء بين الابن والأب أساسية، فزيد وهو طفل وجد نفسه في طريق محمد، الذي أوقفته هناك صدفة عاصفة شديدة، هناك حيث كان ابنه المنذور ينتظره، ابنه الذي عبر الصحراء ليلاقيه، والقدر قد وضعه من أجله في هذا المكان، وكل ذلك بتدبير من الله، الذي أراد تعويض رسوله القادم، الذي حرم من أبناء ذكور، لم يكن هناك وسيط بينهما، فالطفل الأعزل كان حراً مثل الريح، ومحمد كان يحلم بولد، ووحده الله يمكن أن يرتب مثل هذا اللقاء.

تراءت لهم مكة، وينبغي إخبار الأقارب والأصدقاء، الذين سيتساءلون بالطبع عن الطفل الذي يستصحبه محمد، ماذا سيقول لخديجة، زوجته المحبوبة، الرقيقة، المخلصة والكريمة؟ لم يكن واردا آنذاك ذكر الأبوة التي أملتها السماء، فهذه المرأة التي قدم لها محمد خدمته وخبرته في التجارة، منحته قلبها ودارها، ووضعت ثروتها رهن إشارته، كانت تشكو خفية من عدم قدرتها على ولادة ابن من صلبها، ولم يكن بإمكان زيد في تلك الظروف، ملء مكان الطفل المنتظر، وسد هذا الفراغ الصارخ، ورغم أنه بدون ارتباط، ومتحرر من كل نسب يربطه بعائلة، أو سيد ما، فلم يكن مرحبا به لملء الفراغ، الذي يؤمل أن تمحوه الولادة القادمة. كانت خديجة ماتزال شابة، تقريباً في نفس سن محمد، خلافاً لادعاءات هؤلاء وأولئك، الذين يذهبون إلى أنها كانت طاعنة في السن، رغم أنها بعيدة عن أن تكون كذلك، فنساؤنا يهرمن في سن الأربعين، بحكم الولادات المتعاقبة، التي تضعف أجسادهن، وتجعلهن لقمة سائغة للأمراض، لم يكن بإمكانها منح محمد بناته، لو تزوجته حين تجاوزت الأربعين، إنهم المفسرون الملفقون للحقائق، والمتمرسون في نشر هذه الحماقات بين الناس، فهي حقاً، لم تبلغ الثلاثين من العمر حين صارت زوجته.

ثم إنه كان يحب هذه المرأة، التي كانت تبادله نفس الحب، فزواجهما لم يكن وليد المصلحة، كما يمكن أن تجعلنا بعض الشهادات المتسرعة والطائشة نفكر، وخديجة لم تكن الأرملة الغنية، التي تبحث بأي ثمن عن نيل زوج شاب، تستفيد منه في أعمالها التجارية. فهذه المرأة التي رملت مرتين وهي بعد شابة، بحسب ما رواه ابن عباس، قريب محمد اللامع، لم تركن للعزلة فيما تبقى لها من حياتها، فقد عوضت على ذلك بابنيها، فمن زواجها الأول من عتيق، ولدت بنتا «هند». ومن زواجها الثاني من أبي هالة بن زرارة ولدت ابنا، هند بن هالة، فالأخ والأخت من أبوين وجنسين مختلفين، رأيا نفسهما ملتحمين أحدهما بالأخر، بالاسم الشخصي الذي اشتركا فيه: هو هند. كانت خديجة مهتمة بلحمة عائلتها، ولم تكن تفكر في إدخال غريب في هذه الحميمية، التي كانت تسعى لتثبيتها، لقد تزوجت محمدا الذي أحبته، وهو لم يكن يأمل أكثر من ذلك، لذا بدا متحمساً حين جاءت صديقة لها لرؤيته واستطلاع رأيه، تدخل بعض أقربائه، ومن بينهم أبو طالب، وسهروا على إبرام الزواج، ونظم حفل بسيط جداً بهذه المناسبة، ودخل هذا الحدث التاريخ، لأنه يدشن إنشاء بيت النبوة مع المرأة الأولى، كان هذا الزواج فأل خير وبركة على محمد، وشهد فيه السعادة، لذا لم يكن من الوارد أن يقوم بما من شأنه إهانة زوجته.

وقد كان كذلك لخديجة من زواجها السابق ابن، وهو ما يزال على قيد الحياة، وهذا سبب مقنع وكاف لوحده لكي لا يتقدم فيما نواه من تبني، وليس الآن على كل حال، فإن فعل ذلك سيكون قد برهن على إيثار ذاته، مما يتنافى مع اللباقة المعهودة لدى محمد، كان في حاجة للوقت، لكثير من الوقت ليرتب الأمور في ذهنه أولا.

حررت الجمال من أحمالها، وأدخلها العبيد للحظيرة، التحق محمد بداره، حيث كانت زوجته تنتظره، وهي واقفة في عتبة الدار بوجه سافر، فالحجاب لم يكن آنذاك قد فرض، ولم يكن آنذاك لعمر ولا لمبغضي النساء الصوت المسموع، فكان بإمكان النساء الخروج دون أن يؤاخذن على ذلك. تركها المشهد الذي رأته واجمة، كان الطفل ملتصقا بأذيال زوجها، وأحست بوخز في قلبها، فرؤيتهما التبست للحظة برؤية ابن في يد والده، وخلال السفر وجد ميسرة الفرصة لتنظيف الصغير، وإيجاد ثياب تبرز النبالة الطبيعية لهيئته. تمكن زيد من التأثير في سيدة البيت، لرقته التي لم تنجح النكبة التي حلت به في طمسها، ارتعشت لكنها لم تقل شيئا، وتحاملت على نفسها كامرأة مرموقة، بأن لا تطلب من محمد توضيحاً، لكن عيناها كانتا تقولان بإسهاب كل الأسئلة المخبأة بداخلها، وفي ذلك علامة على حنقها المكبوت، ففهم محمد ضرورة الإسراع في توضيح الأمر.

ولأنه كان حريصا على عدم التورط في تبريرات مستهجنة، وهو في العادة يكره ذلك، فقد أخذ الوقت الكافي لاسترداد نفسه، لكن الله منحه التبرير الأنسب، يا للمعجزة، فقد ذكر لتوّه ظروف مجيء جده عبد المطلب إلى مكة، والذي كان آنذاك صغيراً، فهذا الأخير ولد في يثرب، مسقط رأس أمه، هناك تركه والده هاشم الذي منح عشيرته اسمه، عند أصهاره إبان سفره، وذهب إلى فلسطين حيث توفي في غزة، وتكفل أخوه المطلب بعد ذلك بإعادته إلى مكة، رغما عن أمه. ولما تكاثرت الأسئلة عليه حين عودته إلى كنف أسرته، أجاب بسرعة «إنه عبدي»، ولم يكن لهذه الكلمة «عبد» المركبة مع المطلب أصل غير هذا. لم يتردد محمد في اقتفاء خطاه،

فقد كان التبرير جاهزا بين شفتيه، زيد ببساطة عبد اشتري في طريق القافلة، فرصة ذهبية ينبغي اغتنامها، فالظروف فرضت لتوها جواباً كهذا، لتهدئة الخواطر، كان ردا تلقائيا، ورد فعل دفاعي لحماية الطفل الذي يحس داخله يتأجج بعواطف الأبوة تجاهه، بعد ذلك بوقت طويل، سيسوى الأمر، كما رتبت الأمور من لدن الحكيم العليم، لكن الرد شاع في الحي للحظات بعد مجيئه، وفي هذا شيء منذر بما سيقع لاحقا.

كان زيد ما يزال بعد طفلا، ولم تكن له قدرة الإجابة على كل ذلك، لم يكن يعي المستقبل الذي يرسم له من حوله، لكن مجريات الأمور لم تكن تنتظر رأيه، فقَدره حدد سلفا، رغم الانعطافة الكبيرة التي شكلتها أبوة محمد له. كان بدون أبوين معروفين، وذا هيئة طفل مهجور، فلم يكن له من مقام يطالب به إلا مقام مولى في المجتمع الإسلامي، ليكون سندا حاميا له، ليس له مخرج آخر، غير أن ذلك لم يغير شيئاً من ذاك اللقاء الرباني الذي انتشله من الفراغ المجهول.

حملت الأقلام لتكتب تاريخا آخر له، فتكلموا قليلاً عن محمد الرجل، وأهملوا آلامه ورغباته، لم يكترثوا إلا بما هو مهم في نظرهم، وتجاهلوا ما عاشه حقاً، رغم أنه كان يعلي من بشريته، وهو يضحك أو يذرف دموعا، الرجل المفعم بالبساطة والإخلاص لذويه، لم يكن مسموعا، والقائد الذي يطفو على الصورة التي أعطوا له أخرس الأب والصديق، اللذان محيا من مشاهد التاريخ، وركنا للصمت.

ورغم كل ذلك، فهذا هو الرجل الذي اكتشفه زيد قبل ولادة الرسول، ورأى بداخله نبتة الرسالة تتبرعم، وتتسامى شيئاً فشيئا، في

الواقع لم يتم أبداً تقدير زيد حق قدره، ولم يكن يُقيم إلا تحت زاوية الغاصب المفترض، زاوية نظر كل أولئك الذين يختلسون النظر بلا حياء جهة الخلافة، حين لم يعد هناك شك في الانتظار، أولئك الذين يحلمون بأن يصيروا ملوكا. ودون أن أجهد نفسي في كيل مديح مستحق له، فقد كان كائنا ربانيا في حياة محمد، ولم يتوقف أبداً على أن يكون كذلك، تحضرني صورته الإنسانية، لقد جاء ليملأ مكاناً شاغراً، ويضمد جرحاً عميقاً نازفاً لم تقدر فداحته حق قدرها. عُظم محمد ومجد، ورفعته الأمة الإسلامية، إلى مقام لم يبلغه أحد من قبله، لكن لم يكن محمد إلها، وإنما بشراً مثلي ومثلك، يخضع لإكراهات الحياة، وتجوب خاطره كل الميولات العاطفية التي لا نكل منها أبدا، كان يعاني فراغا عاطفيا مهولا، وقد أتيحت لي الفرصة مرات عديدة للانتباه لذلك، حينما أستقصي أحواله، ورغباته التي لم تحتفظ سنته بكثير منها.

لقد ولد من أب وأم ارتحلا مبكرا، وتركاه وحيدا، وتعرضت ذريته من صلبه لانمحاء كلي، وأتى الموت بلا رحمة على كل عترته الأقربين، لم ير أبداً والده الذي توفي قبل ولادته، وفي سن ست سنوات ماتت أمه هي الأخرى، تاركة إياه بين الأيدي الحنونة بكل تأكيد، لمربيته التي ستقوم مقامها، إنها أم أيمن. فالحرمان العاطفي الذي عاشه كان أكبر من أن يتحمله أي طفل في ذلك السن الغض، ثم ما أن وصل بالكاد لسن ثماني سنوات، حتى مات جده الذي ترعرع في كنفه، وتكفل العم أبو طالب بتربية هذا اليتيم، المحروم من كل الركائز العائلية، التي تسند خطوتنا الأولى في صبانا.

شكل غياب والدي محمد المبكر فراغا معتما، يصعب تحمله، لذا رفع يديه مبتهلا لله وهو ما يزال صغيراً، ليبحث عن صلة تُنجيه،

صلة كان منذوراً لها، وقد اعتملت هذه الصلة بداخله طويلاً وبدون توقف، وتتردد على أحلامه في كل ليلة، وتملأ أفكاره وتأملاته اليومية، في العزلة التي يلزم نفسه بها بلا كلل، لتنضاف مجموعة من التهيؤات إلى أمواج نفسه المتلاطمة، مما أخاف زوجته، وابنه زيد الذي لم يعد يفارقه، لتعوده عليه.

لقد قوى غياب الأقارب عزلة محمد، ولم يكن الموت وحده هو سبب الانفصال عن ذويه، فهناك هوة لا يمكن اجتيازها، هوة حفرت بينه وبينهم، بفعل تعاليم اقتضتها معتقداته الخاصة، وقد كان عقاب جهنم جزاء كل من تخلف من أقربائه على توحيد الله.

وبينما كان محمد وصحابته يجتازون مقبرة، توقف أمام قبر وبكى بدموع حارة، فسألوه عن سبب ذلك، وأخبرهم بأن القبر لـ«أمينة بنت وهب» دون تسميتها بأمه، ثم أضاف بأن الله رفض شفاعته لها. كان الإنسان فيه ينتحب ويبكي، بينما الرسول يتمرس في أداء مهمته خاضعا لمشيئة الله.

إن كل من راقَب مساره وسنته، بحرص وتدبر، عن قرب أو بعد، يشد انتباهه ذاك الفرح الذي يبديه دائماً حين يُسْلم أحد أقربائه، وتلك السماحة، والصفاء العاطفي الذي يظهره إزاء بعض أفراد قبيلته، ولو كانوا كفارا، قد يرجع هذا النزوع إلى رغبته الجامحة في إقناع ذويه، وقد يردُّ بكل تأكيد إلى حاجته لملء ذاك الفراغ العاطفي القديم، ليرتق ما انفتق بينه وبين ذويه بمشيئة من السماء.

يؤاخذه بعضهم بدون رأفة على هذا الحرمان المطلق الذي ولده الموت والقدر، بل يتجاوزون ذلك إلى سبه وتعييره بالأبتر، ذلك الحيوان ذو الذنب المقطوع الذي يشبه الشيطان، تتفاداه كل امرأة

حبلى مخافة أن يسقط ما بأحشائها لمجرد رؤيته، وصار في ما بعد صفة لهذا الرجل، الذي بلا عقب، ولا وارث يرثه. لقد أزعج هذا اللقب محمد إلى حدود أنه صار مسكونا به، لأنه لم يكن له ولد، كأن ذلك نقيصة، كل ذلك كان في منتهى القسوة، تجاه هذا الرجل الذي حرم من وارث له، لكنه عاش الأمر كأنه ابتلاء وامتحان من الله.

زعم رواة الأخبار أنه تعرض لهذه الشتيمة ذات ليلة، حينما دفن ابنه، هذه الفاجعة التي هدَّته، فتخلل اليأس نفسَه، وكان أبو لهب، عمه، وعدوه اللدود هو أول من قذفه بها، لكن ذلك كان إشاعة بدون أسس. ففي ذلك الوقت، كان هذا الأخير مايزال قريباً وحليفاً مميزاً، وكان يحرص على أن تكون له علاقة طيبة جداً مع محمد، الذي كان يُكِنُّ له عاطفة صادقة في الواقع، وقد أبدى، من جهة أخرى، سعادة غامرة حين رزق محمد بولد، وحرر بالمناسبة أمة له، تويبة، وهي من أخبرت الرسول بذلك، ولم يصِرْ المعارضَ العدو الذي لعنه القرآن بوضوح، إلا بزمن طويل بعد ذلك، وهو جرح آخر عمق الهوة بينه وبين ذويه.

كانت السبة تنتشر خلسة، ودون أن يعرف بالضبط مصدرها، وقد نقلها له بعض أقربائه، يخبرونه بما استجد، فأثر ذلك فيه بالغ الأثر، ونزلت سورة إثر ذلك لتطمئنه على مقامه عند ربِّه، وعلى الإرث العظيم الذي سيتركه للمؤمنين، هو الذي عُيِّر بأنه سيترك اليباب من ورائه، سيكون الأكثر عطاء وخصوبة، وهو وعد من الله.

لقد اعتمل بداخله إلى حد كبير أمر عدم قدرته على الإتيان بذكور، وكذلك النميمة التي خاضها أعداؤه، كان لمحمد بعد أن

جاوز الثلاثين من العمر، أربع بنات من خديجة، زينب، رقية، أم كلثوم، وفاطمة، وكلهن عشن وتزوجن قبل أن يتولى أمر الرسالة. فزيبب تزوجت ابن العاص، وهو أموي قريب من جهة الأم، عاشت معه زيجة مضطربة، ولكنها قوية وثابتة، أما رقية وأم كلثوم فتزوجتا أقرباء من جهة الأب، ابنا أبي لهب، وتطلقا منهما بعد ما طرأ حين نزول الوحي، تزوجت رقية بعد ذلك بعثمان الخليفة القادم، والذي رافقته في الهجرة الأولى إلى الحبشة، بعد ذلك سيستقر الزوجان في المدينة رفقة الرسول، وقد ماتت بعد أن مرضت في يوم بدر نفسه، فتزوج عثمان الصحابي والحليف المهم أم كلثوم، أما فاطمة فتزوجت علي بن أبي طالب، ابن عم محمد، وولدت معه الحسن والحسين.

كان لمحمد ولدين من خديجة، القاسم وعبد الله، وماتا وهما صغيران جداً، ماتا في سن الرضاعة، وقد حكت لي أم أيمن ظروف فقدهما المحزن، وملابسات هذا الموت المتلاحق، تحت ضربات القدر التي لا يخرج الواحد منها سالما أبدا. فبولادة هذين الطفلين الملكين ملأ النور بيت الزوجين، لكن ما لبثا أن انتزعا من حضن أمهما، كما يحدث في غارة نهب عنيفة، فتُجلل الروح بعتمة الظلام، امتلأت خديجة حبوراً بولادة ابنها الأول، كان لها ابن من زواجها السابق، واعتقدت أن الأمور ستجري مجرى العادة في أن يكون الوليد الجديد ثمرة الزواج بالمحبوب، لكن الموت أرخى سدوله، وأخذ بلا رحمة الرضيع. غسلت جثة الصغير، ودفنت في جو مثقل بالحزن، حضر الجنازة كل الأقرباء، والأعمام، وأقرباء خديجة، وأصدقاء الزوجين. لم يكن الوقت حينذاك وقت القطيعة، ولم يكن الله بعد هناك، ليدع الكفار في جهلهم يعمهون. في هذه الصحراء يستولي الموت على الكائنات، دون أن يتخفى من خجله وراء غلالة

كثيفة، إنه ينقض عليهم دون مراعاة، كأن الناس دخلاء في أرضه غير مرغوب فيهم، إنه قاس، يؤدي عمله تحت شمس حارقة، وخلال ذلك يذيق الأحياء شواظا من نار جهنم، والله، بكل تأكيد، أكثر حضوراً في هذا العالم الشفاف، حيث لا شيء يغرب عن انتباهه.

رغم وفاة الصغير، لم ييئس الزوجان، مات القاسم، وسيولد عبد الله، لكن أن يموت هو الآخر وفي نفس السن، وفي جو خانق من الحزن، لا يمكن وصفه، فذلك ما سيدفع محمد للانزواء في صمته وابتهالاته، في ذلك الوقت تضخمت إشاعة «الأبتر»، وترسخت في الأذهان. وستتعدد خرجات محمد المفاجئة والطويلة، كان يغادر المدينة دون أن يخبر أحدا، ويثخن في البعد، فبدأ البعض في الحديث عن مغارة، يجد فيها ملاذا رحيما من جور القدر، كان زيد يقتفي خطاه دوماً، حرصاً وخوفاً عليه، وبتكليف من خديجة التي كانت تثق فيه ثقة تامة، عرف مكان عزلته الحامية، فأخبر زوجته بذلك، ومرات عديدة كان ينتظره حتى يخرج، ولا أحد كان يحدس في ذلك الوقت، ما يجول في نفسه، ولا يستطيعون تخيل ما هو قادر على فعله، فهو نفسه لا يتخيل ذلك، وإن كان منقادا بقوى داخلية تتجاوزه، فقد كان يجهل المدى الذي ستأخذه إليه هذه القوى.

انقطعت أواصره، وتعرض لكمد لا قبل له به، فشهد بذاك المقابر، وهي تتحول إلى ملتقى الصلة والكلام الأوحد مع ذويه، مع أمه، وأبيه، وأولاده، دون أن يكون له إخوة يقتسمون معه هذه الآلام المبرحة، فتكونت لديه قناعة بأن السماء وحدها هي التي ستبادله الكلام، لقد اختصته لنفسها، وأنذرته لأداء مهمة سامية، وقد ربي وطهِّر بما تعرض له من محن.

لم تكف الموت عن بسط مخالبها، بعد نزول الرسالة، فلم يوضع حد لقائمة الموتى، إذ رزق محمد، وبشكل متأخر، ابنا آخر بالمدينة، في السنة الثامنة للهجرة، من جارية قبطية جميلة أهديت له من مصر، وسماه إبراهيم تذكيراً بالنبي إبراهيم الخليل، وفرح فرحاً كبيراً حين وصله النبأ، حتى إنه وهب عبداً للخادم الذي أخبره بذلك. ولقد حرك مجيء هذا المولود المتأخر وغير المنتظر فضول الناس، وغيرة الزوجات الأخريات، أُعطي المولود لزوجة حداد المدينة لترضعه، أحبّه محمد كثيراً، وكان يجد الوقت كل يوم ليهرول نحو المرضعة، رغم الإكراهات التي تفرضها عليه مشاغله الكثيرة، ويحضنه ويقبله من أخمص قدميه إلى رأسه، لحظات استثنائية من السعادة، منتزعة من قدر جائر، حرمه وسيحرمه مجدداً من الأبوة. لقد انقاد محمد لحكم هذا الرضيع، الذي تملكه كلية، وأجج فيه عاطفة أبوة قوية هادرة، لكن مآل الطفل حدد سلفا، وجاء الموت مرة أخرى للتذكير واسترعاء النظام. دعي على عجل ذات يوم، فهرع رفقة عبد الرحمن بن عوف، الذي كان يمسك يده، وقد سبقتهما لأني كنت أستشعر كرباً قادماً. كان الكل خائفاً من أن يحل خطب بالطفل، الذي أظهر علامات وهن مقلقة، وحين وصلا كان إبراهيم في النزع الأخير، فحمله والده برباطة جأش، والدموع تسيل مدرارة من تلقاء نفسها، ولم يمنع نفسه من أن يعبر بصوت مسموع عن أساه، لكنه تمالك نفسه هو الذي لا يتشكى أبدا. كان الأمر قاسيا بالنسبة لهذا الرجل وهو في نهاية العمر، لقد أنار حضور هذا الطفل القصير الأفق حياته، وأحيى بداخله أمل وجود ذكر من صلبه، يُكذب كونه أبترا، لكن الموت لم يهمله، كما حدث سابقاً للأبناء الآخرين، ولم تحدث أي معجزة. قمت بدفن الصغير رفقة أحد أبناء العم

العباس، مثل ما فعلت في دفن رقية، بنت محمد، أنزلت الجسد الصغير للّحد، وبقي محمد واقفا، وهو ينظر إليه يغيض في الأرض إلى الأبد، كان منهاراً بانهيار آخر أمل له في ولادة ابن له، لقد طمر في التراب بلا رجعة، وكسفت الشمس في ذلك اليوم.

كان هذا هو الرجل الذي اتخذ زيداً ابناً شرعياً له، ولم يرده أبداً أن يكون عبدا له، فالنظرة الأولى التي وجهها له كانت نظرة أب، ولم يحرص على أن يقدر الربح أو الخسارة في جلبه معه إلى بيته، وحمله معه كهبة من القدر، الذي أصر على أن يحرمه من ولد ذكر، وهو بهذا ردّ الصاع صاعين لهذه المشيئة، وأخذ ما بدا له أنه مستحق له: ابن محبوب. فمع زيد كان يمني نفسه بأن ينسى الأحزان والآلام، التي سببها الموت له، فبعد موت ابنه الثاني من خديجة أيقن بأنه لن يكون له ابن ذكر في حياته، وبعد ذلك، بقليل، قرر أن يستأنف رحلاته التجارية، حتى يتسنى له نسيان ما حل به، وليس بهاجس إنماء الثروة، ولم يخطر في باله وهو يعبر الصحراء، وقد تبخرت آماله، أن هناك مفاجأة بانتظاره، فتجلي هذا الطفل في حياته، لم يكن وليد الصدفة، ولكن كانت لذلك حكاية كبيرة.

ما أن وصل زيد إلى دار خديجة ومحمد، حتى ارتاح للعيش في هذا المسكن الهادئ، كان يرافقهما وهو صغير لزيارة الأقارب وحيثما ذهبا، اعتاد بسرعة على الحي، وصار يذهب لوحده عند أقرباء محمد، وارتبط بصغارهم بناتا وبنينا في علاقة صداقة، وحين كان يعود محمد من إحدى خرجاته، يأتي أولا ليتفقد أحوال زيد. وكان زيد بين الفينة والأخرى، يقوم بنزهات رفقة هند، ابن خديجة، وقد جمعتهما مودة متبادلة، نسجت ولم يتمكن الزمن من فصم عراها، إلى أن فرق بينهما الموت. لقد دخل زيد بسهولة إلى حياة مستضيفيه،

لقد كان ابنا لهم في واقع الحال، وليس خادما، قبل أن يصير كذلك بحكم الشرع، وأتى خلسة ذلك اليوم، الذي ارتكن فيه محمد لرغبته الملحة في أن يقنن هذه الصلة العاطفية، وأن يكشف تعطشه لأن يكون أبا، كانت له مشاورة طويلة مع زوجته، التي كانت تنتظر منذ مدة أن يفاتحها في الأمر، بعد إخفاقها كلية في أن تلد أبناء ذكورا، قبلت ولكن بدون حماس، ثم فاتح عمه أبا طالب في الأمر. وبعد ذلك أذاع رغبته في أن يكون له ابن شرعي، حرص على أن يقول ذلك علانية، حتى يتسنى للجيران سماع ذلك، ومن يومها وأبي يحمل اسم ابن محمد، ذلك الاسم الذي لن ينمحي أبداً من قلبي، لم يزعج إشهار أبوة محمد لزيد أحدا، لأنه كان ما يزال مواطنا عاديا، وليس رسولا كما حدث بعد ذلك، وتم تبني زيد.

كان التبني في تلك الفترة وحتى الأمس القريب يمنح للمتبني نسبا شرعيا، ويحمل بذاك اسم متبنيه. عاش زيد بن محمد أربعين سنة بهذه الصفة، عاش بها حياة كاملة، حياة كاملة وهو يدعى ابنا لهذا الرجل، ليأتي الناس ليقولوا له ذات يوم، إنك لم تكن له ابنا شرعيا، لكن ذلك شكل جسراً في التاريخ، سأعود له لاحقاً.

في هذه الساعة، كان يكبر في ظل محمد، يقتسم معه حياته، ويتمتع بثقته، كان يعرف أكثر من الآخرين أشياء لم يكن محيطه يقدّرها حق قدرها، كان على يقين بالمهمة التي تسكن والده، فقد سافر معه كثيراً، وأثار انتباهه قوة رغبته في فهم العالم والحياة، كانت أماكن العبادة تثير اهتمامه، وكان يعرف كل شيء عنها، حتى وهو في مكة، كانت الأماكن المقدسة جزءاً لا يتجزأ من حياته اليومية، يتعبد دائماً في الكعبة، ويستفسر عن تاريخ البنايات والشعائر والطقوس التي تقام بها، لينمي بشكل غير واع، ما يعتمل بداخله.

كان زيد الذي ينام في العادة نوم القطا، يرى كيف أن القلق تضاعف عند محمد بوصوله لسن الأربعين، كان يستفيق أكثر فأكثر في الليل، يكلم نفسه، يردد دعوات لم يسمع مثلها من قبل، كان، على ما يظهر، معذبا بضغط داخلي كان يخرجه أحياناً من سريره، فيشرع في الذهاب والإياب في باحة البيت، أو يختفي في الزقاق القريب، ليعود ساعات بعد ذلك، ويتهاوى مريضا جثة هامدة. كان كل من في الدار قلقا لهذا، وكانت خديجة تستفسر عن الأمر، وتطلب النصيحة من كل من حولها، وألحت بشكل خاص على زيد، وطلبت منه أن يسهر على زوجها عن قرب، كانت تخشى أن يصيبه مكروه، وهي تراه يغيب أكثر فأكثر، وبشكل غامض، في ساعات متأخرة.

لم يفاجئ الوحي أبي، فقد استشعر مجيئه، ورأى بأم عينيه إرهاصاته، وملامحه التي ارتسمت في الزمن، لقد سمع أباه يكلم نفسه، وبين الحين والحين يحدثه هو نفسه عن الكون، وعن الله الذي صار حضوره كاسحاً، لا أحد رأى أفضل منه مخاض هذا الحدث الجلل، وولادته. فقد عضد خديجة إبان نزول الآيات الأولى، وفيما رافق ذلك من آلام، لا يتسع المجال هنا للعودة إلى تفاصيل نزول الوحي، فشهادات الصحابة حافلة بذلك، رغم أنها شهادات منمقة شيئاً ما، ومزينة بمعجزات خيالية في الغالب بشكل أو بآخر، لكنها لا تكثرت بما هو أساسي. آمن زيد بشكل تلقائي وسريع، لقد كان دوماً مؤمنا، كان أول من آمن من الرجال بالدين الجديد، دين محمد، دين أبيه، شرف كبير سيطاله، هو الابن المأمول والمحبوب، الذي فهم مبكرا، لأنه كان فطنا، وكان يعرف كيف يرى، ويحب أن يرى.

منذئذ اضطلع بدور المساعد، وكلما استلزم الأمر كان ينقل الرسائل بين محمد وبعض الصحابة الأوائل، كان في الغالب الأعم في جيئة وذهاب بين بيت الرسول ودار أبي بكر، وهو صديق قديم، سيصير رجلا ثقة، سيساعد الدعوة بشخصه وماله. بقيت دائرة المؤمنين الأوائل سرية، ورغم أنهم لا يشكلون إلا قلة قليلة، فقد ظلوا ثابتين منيعين، وشكلوا ركيزة أساسية، واضطلعوا بدور حاسم بعد ذلك، كان الحذر واجبا في نشر الدعوة، ويوجب عليهم تلافي أي خطوة خاطئة، فالقرشيون لم يكونوا ليقبلوا بسهولة التشكيك في معتقداتهم وآلهتهم، التي يجلّونها ويعظمونها بلا حدود، ثم إنها مرتبطة بمصالحهم.

لفّت الأخبار أبي بعتمة حقيقية طيلة هذه المدة، وأصحاب الأقلام التي نصّت ذلك، هم اليوم في خدمة المعسكرات المتصارعة، فقد قاموا بكل شيء لطمس دوره، وحجب المكانة الطبيعية التي اضطلع بها قرب والده، في تلك الدائرة الضيقة لأوائل الصحابة، كان هناك إدراك مبكر للأهمية التاريخية لرسالة محمد، فجاذبية الرسول أقنعت الأكثر فطنة ورجاحة عقل بالنجاح الأكيد، رغم المصاعب التي تتراءى، فقد كان الجميع يستشعرون بجلاء، بأن الوقت هو الوقت الملائم لظهور نبي. كان زيد يثير الإعجاب داخل هذه الدائرة حينذاك لمزاياه ولصلة النسب التي تربطه بمحمد، ولما أسداه للإسلام، كانت له هالة ما يسمى بقوة الشخصية، فثمة إشعاع أخلاقي يصدر عنه وهو يكبر في هذا الوسط، وكان يشهد له بشجاعة المحارب المقدام، التي ستتراءى للجميع بوضوح فيما بعد. وقد كان كذلك رجل علم، فحين جاء كان يعرف القراءة، وقد أخبرت أمه المحتضرة محمد بذلك، فجوّد معرفته هنا وهناك، إذ كان لورقة بن نوفل، قريب خديجة،

معرفة كبيرة بالأديان، وكان يكن له ودا، ويعلمه من حين لآخر، وكانت له أيضاً دائرته العالمة المميزة، والمشكلة من بعض العبيد، الذين تربطه بهم علاقة وثيقة، لذا كان من الأوائل الذين حفظوا القرآن، وبلغوا التعاليم الأولى والضرورية للديانة الجديدة، هكذا نسج علاقة مع زينب بنت جحش، زوجته القادمة، التي ستخلق المجال للكثير من السجال.

انتهت السنوات الأولى لنزول الوحي، التي عاشها المؤمنون الأوائل بسرية، وشغف بالدين الجديد، وشاع خبر الدعوة في كل المناحي، كما يقع دوماً في هذه الصحراء، حيث تنتقل الأخبار بسرعة الريح، ففي هذه الحياة البدوية لا ينتقل الناس إلا سيراً على الأقدام، أو فوق ظهور الجمال، ومن المدهش رؤية العناية التي يولونها للاستماع لذويهم، فقبل أن يصدع الرسول بما يؤمر به، خرج السر من دائرة الأقارب والصحابة الأوائل، لأن قلوب المؤمنين المثقلة لم تتمكن من الاحتفاظ برسالة بمثل هذه القوة، وسحر الآيات الأولى والرعشة التي تولِّدها حتى عند الكفار، تجاوز حدود المسافات الطويلة والمرهقة التي يجد الناس ومطاياهم صعوبة جمة في قطعها. كان الناس الرُّحل في الغالب الأعم، يعيشون في هذه الأماكن بفضل الحركة الدؤوبة للقوافل، والأخبار تنتقل في العادة من سوق إلى سوق، ومن قرية إلى قرية أخرى، ومن قبيلة إلى قبيلة، لتصل حتى إلى البلدان النائية، بسرعة لا يمكن تصديقها، وكل الناس الذين تجتاحهم حاجة روحية قاهرة، وجدوا أنفسهم مهتاجة بقوة هذا الغموض المحيط بهم، فغرسوا أعينهم في السماء، انتظاراً لرحمة تهبهم السلام والسكينة، وتهديهم سواء السبيل. ومن المؤكد أن الرعشة التي تصيب الأرواح، تمنحها قدرة غير معتادة لتلقف الرسائل

الإلهية. لقد كان الناس يستفيقون كل صباح، ويستطلعون الأعالي، منصتين للترددات الغير مرئية، وهكذا كل يوم، وكل يوم أكثر فأكثر، يتحدث الناس داخل القبائل عن رسول سيبعث في الأوقات القادمة، وهم يترقبون مجيئه، وكل حاج يتراءى في الأفق، وكل شاعر مثير، وكل كاهن ذي أقوال غامضة، يُعتقد أنه المصطفى أو يتظاهر بأنه كذلك، قبل أن يذوب ويختفي في هذا الخليط. كان يبدو أن الأخبار تحلق بأجنحتها الخاصة، ولا سلطة للأرض عليها، كما كان يبدو أن لكل الكهان ولكل المتنبئين صلة ما بالسماء، فاسم الله بدأ يذكر في الأشعار، وكذلك الدعوة إلى ضرورة الاعتقاد برب واحد، وقد صار ذلك حاجة ملحة، وبالنسبة للبعض ضرورة حيوية ينشرونها من حولهم، ولم يعد النسّاك يشربون الخمر، وصاروا يرتلون نصوصا تمجد السماء، ويوزعون الصدقات، ويدينون بعض عادات الناس، وخصوصاً المتوحشة منها. وهكذا زيد المسافر، والخطيب القارئ، رأى هذه الظروف إيذانا برسالة، ستُحول هذا المجتمع المنقسم على نفسه، الذي لا غاية يهتدي بها، ومحمد هو من سيكون صاحب هذه الرسالة ومحركها، فقد كانت له كل الملكات اللازمة لتحقيق هذه الغاية، ومن ضمنها تلك الصلة الغامضة مع الله إلى الآن، ولكنها في نفس الآن قوية وشديدة، حلم زيد بهذا. وأخذ على عاتقه مهمة تجميع أكبر قدر من المعلومات عن هذه الحركة الجارية، وما يرتبط بها من اضطرابات.

كان كل شيء ممتزجا في هذا الجو الحماسي، ولم يكن الناس أبداً يرتادون أمكنة عزلة الكهان، لكن صار الأمر الآن عكس ما كان عليه، وهذه الأصداء المتعاظمة لما يجري في مكة بلبل فكر زيد، فسار إلى كل الأماكن التي تكثر فيها الإشاعات، ولاحظ بنفسه تلك

الجموع التي تقبل على خيام السحرة، رغم أن والده كان ينصحه بالحذر منهم وتجنبهم. الجموع تأتي صباح مساء، وكل واحد منهم يريد أن يعرف ما يخبئ القدر له، وأكثر من ذلك، يريد تتبع ما يجري، وأن يرى ويسمع بعض تجليات الخوارق، وأخبار النبوة الوشيكة، لكن لم تعد للكهان تلك الحميّة السابقة، فقد صاروا يَنْزوون في جحورهم، ولا يستجيبون إلا بين الفينة والأخرى لمرتاد يهم، فعزائمهم عصفت بها الريح، وغضبهم كاسح تجاه وسطائهم، ويصل صدى كل ذلك لآذان أتباعهم، فلم يعودوا قادرين على إخفاء حنقهم على السماء، إذ ارتعب الناس لرؤية حشد من النجوم غير المعتادة، وهي تتهاوى نحو الأرض، فهرعوا إلى رجل حكيم ونافذ البصيرة منهم، فأخبرهم بأن هذه النجوم لا علاقة لها بما يهتدون به في سير قوافلهم، فهي في عبورها المرعب تنبئ بحدث جلل سيقع. وقد شهد الناس في تلك الأوقات أشياء غريبة. زار جن كاهنة بني سهم، المعروفة بلقب «الغيطلة» ـ لا يقال له جنها بل بالأحرى صاحبها ـ فأتى لها بكلام شبيه بالهذيان، وارتمى على رجليها، ثم قال «أدر ما أدر، يوم عقر ونحر»، لكن الناس لم يفهموا مغزى كلامه، ثم جاءها مرة أخرى، وانقض تحتها، وقال: «شعوب ما شعوب، تُصرع فيه كعب لجنوب»، فما عرفت قريش مقصده، حتى كانت وقعة بدر بالشعب، وهي المعركة الكبرى الأولى التي واجه فيها محمد قبيلته الكافرة، وصار يهدد تحكمها في الطرق التجارية. كان هاجس ترقب النبوة منتشراً في بلاد العرب، بما فيها الأماكن النائية والمنزوية، إلى حدود اليمن، فأرواح الناس تتشوف ذلك، وتتساءل عن الأمر، لقد اجتمع أهل إحدى القبائل اليمنية في أسفل جبل كان يتعبد قربه أحد العباد، فنزل عليهم حين طلوع الشمس،

فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس، فرفع رأسه إلى السماء طويلا، ثم رسول مقبل قال: «أيها الناس، ولم يعط تفاصيل أخرى، كان الكهان يتعمدون الكلام مع الناس بأقوال ملغزة، ويحيطون أنفسهم بالغموض. جاءت معجزة محمد لتنير ظلمات هذا الكون الذي يتحكم فيه المشعوذون.

دخل أعيان قريش في غضب ماحق، ما أن تنبهوا إلى أن الأمور يجب أخذها مأخذ الجد، فمحمد ليس لا بالساحر ولا بالمجنون الذي كانوا يهزؤون به في سهراتهم العائلية، فهو يهدد معتقداتهم، ومقام عائلاتهم الكبيرة ومكانتها في المدينة، لذا صاروا يمارسون عليه ضغطاً كبيراً، ويتحرشون به باستمرار، ولا يتركونه يرتاح ولو للحظة، فأرسل محمد بسرعة مجموعة أولى من المؤمنين للهجرة إلى الحبشة، ليحافظ على حياتهم، وسيزدهر الإسلام هنا وهناك، في إفريقيا، وخصوصاً في المدينة حيث وجد الرسول أنصاراً كثراً، وقرر بأن يهاجر إلى هناك، ويجعل من المدينة مركزا للقيادة، ولم يعد إلى مسقط رأسه إلا وهو منتصر، وسيتحكم منذئذ في الأماكن المقدسة، وسيكرس نفسه بعد ذلك لنشر كلمة الله في كل ربوع البلاد العربية.

خاض زيد كل المعارك إلى أن وافته المنية وسيفه بيده، وكان أحد صناع انتصار محمد، وهو يرافقه ويسنده ويعزيه، كان الابن، والصديق الذي صارت له مكانة مرموقة، ومحترمة من طرف الجميع، غير أنه لم يبق من آثاره إلا القليل، لقد خطّا بكفهما معا، هو ومحمد مصائر البلاد العربية.

صار الجو خانقا بالنسبة لمحمد بوفاة عمه أبي طالب، وزوجته خديجة، فقرر الابتعاد، وإلى ذلك الحين كانت أخباره تتناهى متقطعة

للقبائل الأخرى، وقد فاتح بعض ممثلي هذه القبائل إبان الحج والأسواق، فهو يريد المس بتراتبية الناس، ويستثير غيرة المعسكرات المواجهة لعشيرته، عشيرته التي وجد فيها أعداء، مثل أبي لهب، عمه الملعون، الذي طلب من ابنيه بأن يطلقا ابنتي الرسول.

كان الرسول يحس بالحاجة لملاقاة أناس آخرين، حتى يتسنى له الجهر بدعوته، فقد حان الوقت لتوسيع دائرة سامعيه، إنه رسول الله للعرب، وليس كاهنا من الكهنة، أو أحد محرضي القبائل، وعليه الاضطلاع بمهمته، وتبا لقريش، لعله قد يجد سندا قويا في مكان ليست له فيه ارتباطات عائلية وغير مشروط بأي شيء، وقد يجد أناساً يستمعون لرسالته، دون اهتمام بنسبه، لقد ضاقت به مكة، وهناك آخرون يفخرون بصلتهم بالآلهة، وإن بقي في مسقط رأسه يعني انكفاءه على ذاته، وحرمان نفسه من انفتاح صار ضرورياً، وترك المجال فارغا للمدعين للنبوة.

ذهب إلى الطائف، ولم يستصحب معه إلا زيداً ابنه، لم يتجاوز مكوثهم هناك إلا عشرة أيام، ما أن وصلا حتى اتصلا بثلاثة من سادتهم وأشرافهم، وهم إخوة اغتنوا من التجارة، وكان أحدهم متزوجا من قرشية، بحكم ما تفرضه مسارات القوافل من تحالفات، كان محمد يعلق آمالا كبيرة على هذا اللقاء، لكنه لم يجن منه شيئا، بل سلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم، إلى أن التجأ إلى ظل حبلة من عنب، وقدم له غلام نصراني العون وسط هذا العداء، ثم انصرف من المكان بدون تأخير.

لقد علق آمالا كبيرة على أهل ذلك البلد، فمؤمنون مزعومون وعدوه بعونهم، لكنهم اختفوا بلؤم، حين رأوا الحشد الذي يتبعه.

جرَّ النصراني ـ الذي تعامل معهما بكرم ـ زيدا، وقدّم له صورة عن الوضع: فثقيف لن تتابع محمدا أبداً عن طيبة خاطر، إذ لهم نبيُّهم الخاص، أميّة، ويرونه أكثر إقناعا، وأكثر علما من أي رجل آخر، فهو على اطلاع بكل أسرار السماء.

لم يفارقه زيد في كل هذه التجارب المتتالية من الصد وعدم التفهم، يظل متيقظا على أهبة حماية أبيه، وقدوته، في تلك الفترة الصعبة التي غاب فيها سندان كبيران وأخيران، خديجة وأبو طالب. تزوج محمد سودة، وهي أرملة أحد المهاجرين إلى الحبشة، وعاش معها أربع سنوات، كانت هي الزوجة الوحيدة في تلك المرحلة الانتقالية، ولم تكن له لا جارية ولا زوجة أخرى، إذ لم يكن حينذاك سيداً غنياً، ولا رسولا لامعا يُتشوَّق للارتباط به، كانت سودة زوجة رائعة، ولم يتشك منها أبدا. فقد تمكنت من أن تهب الحياة للبيت في خضم تلك المحنة، لم يلد منها، وخلال ذلك كبرت بنات خديجة، وكن يعشن في أغلب الأوقات لدى أزواجهن، باستثناء أم كلثوم التي بقيت في بيت والدها، بعد أن طلقت.

توفيت خديجة، والآن زيد وحده هو القادر على منح محمد الحدب والعطف، الذي لا يتأتى في العادة إلا من البر بالوالدين، لقد كان يحرص عليه في الأسفار، يركب خلفه، وأحياناً يمشي على رجليه ليتركه على راحته، ويسهر على أن يتغذى كما يجب، لا ينام من الليل إلا أقله حتى يتسنى له حفظه من كل مكروه. وقد حدثني طويلاً عن اندهاشه الكبير إزاء ورعه، كان يراه يتعبد ساعات طوال، يصلي، ويتلو القرآن، كان يصلي وراءه من حين لحين، وهو يرتل الآيات الموحاة له، والمحفوظة في قلبه، لقد كان يتمنى أن يصدع بها في وجوه الكفار. كان زيد يعرف بأنه محسود على هذه البرهة

الزمنية الفريدة والغنية جداً، التي يعبرها معه، فحتى أبو بكر قد لا يرضى باصطفائه لخوض هذه المحنة رفقة الرسول.كان زيد هو الابن، هو الملاذ، هو تلك اليد الممدودة بشكل تلقائي، كان الكتف المستند عليها، والملجأ الموثوق، المعزز بأواصر الدم، وأكثر من ذلك بالحب الوفي القائم بينهما، ففي هذه الفترة، فترة الأسفار التي خاضاها معا، تقوت الوشائج بينهما باقتسامهما كل المصاعب، واشتراكهما في النهم بأداء المهمة المقدسة، هذا القرب الحميمي من الرسول، الذي شهده الجميع، هو الذي حرّك العداء الدفين تجاه زيد، وسيهيئ فيما بعد نكبته القادمة.

كانت هذه الفترة الأكثر إثارة في حياته، فكل يوم يمر يدفعه للتشوق لليوم القادم بعده، لم يكن مثل الآخرين، عليه أن يسكر ليبلغ السعادة، فقد كان تملا من تلقاء نفسه، كان محمد آنئذ الرسول، المزدرى، المنبوذ، الذي يتم تجاهله، وكل يوم كان يمتشق عصا الراعي المنشغل بهدي قطيعه إلى سواء السبيل، لقد سلكا معا مسارب الصحراء الشاسعة، التي صارا يعرفانها الآن معرفة كف اليد. يظهر أن محمد لا يمسه كلل.

يبدو أن الأشياء لا تمتلك أي سلطة عليه، إذ يتعالى به نظره المشدود للأفق البعيد. منذ البداية، كان الحج للكعبة فرصة مميزة للدعوة، وهو يحس بأنه الوريث الشرعي لهذا المكان الذي باركه الله، ولا شيء قادر على النيل من تصميمه، فلا عدم مبالاة المكيين الذين سئموا ادعاءات المتدينين، ولا المرافعات الحقودة للكهان، ولا حتى هجاء الشعراء الذين يعبِّرون بلسان قبائلهم، والذين كانوا يجدون متعة في التلاعب بالآيات، ولا السباب البذيء لسادة قريش قادر على إبعاده عن نيل هدفه. كان يقف في مداخل الحرم وزيد

بجانبه، ويرى الحُجاج قادمين زرافات زرافات، يتلقاهم، يسألهم عن المكان الذي قدموا منه، وعن اسم قبيلتهم، وعن سادتهم أو ملوكهم، ويطلب منهم أن يسمعوا له كرسول: «قل الله لا إله إلاّ هو لا شريك له»، كان يعرف بأن هؤلاء الناس يطُوقُون للغنى، لذا كان يدغدغ حبهم للمال وخوفهم من الموت، كان يعِدُهم بأنه سيجعل منهم أسياد العالم وملوك الآخرة، ويكفي ليتحقق ذلك بأن يؤمنوا بأن الله واحد قهار ويذعنوا له.

كان بالغ الأثر، مسكونا برسالته، ومنخطفاً أمام الحضرة الإلهية، يدعو القبائل مستحضراً واجبه في ذلك، ومستجيبا لله الذي يتكلّم بلسانه، وفي آخر اليوم، يأخذ يد زيد، ويعودان للمأوى الذي يأويهما في بعدهما عن المدينة، عودة حزينة لعدم تّمكنهما من زيادة عدد المؤمنين، لكن في اليوم الموالي ينبثق لهما نفس جديد.

في هذه اللحظات القاسية من العزلة، وفي هذه اللحظة التي يواجه فيها إعراض الناس، تبدّت لزيد عظمة محمد أكثر من أي وقت آخر، وهؤلاء الرجال ذوو الخيلاء المستهجنة، سينحنون فيما بعد إلى الأرض، لمحادثته ولمسه، والقرب منه. لقد خبر زيد الناس، خبرة لا يمكن أن يلقنه إياها أي درس، ومنذئذ صار يعرف كيف يتعامل معهم، ويعرف كيف يواجه حقارتهم وجبنهم، وقد تبثت الحرب رأيه هذا فيهم. في تلك الأوقات، كان يبدو أنهم لا يرونه، حين لا يوجهون له ازدراءهم مباشرة، ويعيرونه بخادم محمد، وغدا، حين سيسطع نجم الإسلام، سيتبثون فيه نظراتهم الحقودة، الجبانة المنتقمة، وسيصيحون بغلّهم «ليسقط الغريب، ليخرج المدعي»، كانوا على استعداد للتنكر لعاداتهم الخاصة لإبعاده، ولكي يرفضوا الصلة التي تربطه بوالده، صار التبني الذي أخرج الكثير منهم من

العتمة، يبدو لهم فجأة مستهجنا، وكانوا سيقتلونه، بدون شك، لو لم يعمد محمد إلى قطع نسبه به، والتنكر لأبوته له، رغم أنه لم يتوقف عن حبه.

في انتظار ذلك، كان زيد هو محبوب أبيه، الذي يسلك رفقته دروبا لا تنتهي، وتعرّفا على مواقيت الأسواق المقامة، وهنا أيضاً، ومثلما يحدث إبان الحج، كان محمد يصعد فوق حائط أو مطية، فيعظ، ويفسر، ويحذر، ويقنع. كانت له بلاغة تُخجل فحول الشعراء، والحق أنه كان معجبا بهؤلاء الذين يملكون سحر الكلام، وكان يكرمهم حين لا يوجهون نحوه سهامهم المسمومة، التي تريد تحطيم دعوته، لقد كان يعتبرهم في مقام السحرة، الذين يملكون أسرار كيمياء الكلمة. كان الشعراء أحد أهم المسليات في سوق عكاظ، هذا التجمع الكبير للتجارة والاحتفال، حيث يعمد الأقوياء إلى إظهار قوتهم وترفهم، كان السوق يجذب الشعراء الذين يأتون محاطين بحماتهم وقبائلهم، ينشدون آخر قصائدهم، ويلهبون حماس المستمعين، ومنذئذ صار محمد يحذر من بين الشعراء، أولئك الذين يتغنون بالحياة والترف والمعاصي، لكن ليس كل الشعراء.

وقد كان أمية بن أبي الصلت استثناء، فكل أشعاره المعروفة ليست سوى ورع وعبادة، لم يقل فيه محمد سوءا، وكذلك أبي. كان أمية يثير فضول زيد، وقد تأتت له فرصة سماعه، بعد أن كان متعطشاً لذلك، أشك بأنه عاد لرؤيته حتى يطمئن قلبه، سار وحده دون إخبار أبيه، وهذا ما ولد بداخلي حيرة شديدة، أسرّ لي وكأنه يتخلص من سرٍّ يقض مضجعه: «إنه رجل رائع». قال لي ذلك دون زيادة، وأخذت على نفسي ألا أفاتحه أبداً في الأمر، أدركت أن السير في ذلك الطريق محفوف بالمخاطر، ومن جهتي، تمكنت من أن

أعرف عنه أشياء كثيرة، فقد كان الرجل جديراً بشهرته، وحين عرفت رسالته أيقنت أن الروح الإنسانية معقدة، فتملكتني حيرة شديدة، فهذا الرجل لم يكن رجل إغراء ظرفي، ولا كان ساحرا، ولا كاهنا، وإن افتقد هالة الرسول، فإن أناساً مثله عبّدوا الطريق، بتحسيس الناس بحضور الله. كان محمد معجبا ببعض أقواله، التي صار الناس يتداولونها دون أن يعرفوا مصدرها، وهو يرى بعض الشعراء يقتلون، وبعضهم يخنق، فقد بقي أمية على مبعدة من محمد، ويتوجب القول بأنه استفاد من حماية عشيرته، وقد رأيت بعد ذلك العديد من الشيوخ يحيّون فضائل أمية بشكل سري، وهذا التعظيم كان فيما يبدو في محله.

لم ينصف رواة الأخبار هؤلاء الذين أسميهم الممهدين، الذين تم تحقيرهم، وفي أغلب الأوقات تم تجاهلهم، والذين لم يلجأوا لا إلى الكذب ولا إلى الخداع، ولكن لم يكونوا وحدهم المنسيون في قائمة تكريم المؤسسين، ذات البياضات العديدة التي يتوجب ملؤها. فهناك مؤمنون من طينة نادرة، تكبدوا آلاما في أرواحهم وأجسادهم، ولم تتم مكافأتهم بقدر ملكاتهم والتزامهم، وقد عرف زيد العديد منهم، هو الذي كان يخالط العبيد الذين آمنوا بمحمد، وأخلصوا في إيمانهم، ودعموا الدعوة بكل ما أوتوا، دون أن يفكروا للحظة في الحكم، ولا أن يحلموا مثل أبناء العشائر القوية في الخلافة، مثل ما هو حال سلمان.

فهذا الرجل الذي عرفته أنا نفسي عن قرب، واحترمته، كان أحد أخلص أصدقاء أبي، جاء إلى الرسول من بعيد، كأن شيئاً ما جذبه نحوه، وحمله إليه دون أن يحس، ففي بحثه عن دين أفضل من عبادة النار التي كان عليها قومه، هاجر بلاد الفرس مسقط رأسه، حيث كان

يعيش في هرمز، هارباً من أبيه الذي أراد أن يبقيه رازحاً تحت أغلال معتقدات بالية، فالتحق بنصارى جمعته بهم صداقة، ورأى بشكل خاطف شعائرهم الكنسية.

كانت رحلة سلمان مثالية، فقد جسّد لوحده هجرة نحو الدين الجديد، أولئك هم المؤمنون التواقون لحرية لا شيء ينال منها، ولمساواة لا تقبل أي تمييز، لكن خيّب ظن العديد منهم فيما بعد، وزيد أبي، رحمه الله، جاء هو أيضاً عند محمد محمولا بين أيدي القدر، كان يقتسم معهم هو أيضاً هذه القناعات. واجه سلمان ودون أن يأخذ احتياطاته الصحراء، صحراء العزلات، والحر، والعطش والجوع، وعبر خصوصاً صحراء قلوب الناس القاحلة، هذه الصحراء التي يجتمع فيها ما قيل سابقاً والجهل والحقد والجشع التام. لقد جاء إلينا مدّثراً في ليل الإنسانية الحالك بالعبودية. ففي رحلته نحو البلاد العربية، استعبده رفاقه في الرحلة، الذين لم يشك فيهم أبدا، فقد كانوا جوارحاً بوجوه ملائكة، باعوه لتجار من أحواز المدينة، هكذا وصل إلى هنا بعد أن تم استعباده، لكن ذلك لم ينل منه بشكل لا رجعة فيه. فمالكوه لم يصيروا أبداً أسياده، كان تحكمه في النفس يستدعي سموا في الروح، ذلك السمو الناذر الذي لا يملك سرّه إلا القليل منا، وما أن وصل إلى هنا، حتى جاء لرؤية محمد، وقد أثار اهتمامه بشكل سريع. كان سلمان رجل تجربة وحكمة ومعرفة، وإبان هذا اللقاء الأول المؤثر، أذهل سامعيه، فقد كان يتحدث عدة لغات، ويدهش بمعرفته للحضارات والأديان، قاده زيد شخصيا إلى المكان الذي سيشتغل فيه، وأحس تجاهه وداً، لا شيء سيؤثر فيه لاحقاً، فقد وجد في سلمان منبعاً لا ينضب لإرواء عطشه في المعرفة، وفي فهم ما يجري، وقد فرح لهذا الصديق الوفي والمخلص، والذي كانت تقواه متينة لا شائبة فيها.

ولو أن ذلك يبدو مفارقا، ففي أوساط هؤلاء العبيد أكمل أبي معارفه، وشحذ قدرته على الجدال، كانت تلك الأوساط كونية ورائعة، فهي كذلك بتعددها، وباختلاف الألسن فيها، والألوان، والأغاني والإيقاعات، وهذا التعدد الذي جسدته هذه الأوساط هو الذي سيمنح بدون شك قوة للإسلام، فهذا الانفتاح على ثقافات مختلفة جديدة، كان مدرسة في التسامح والإصغاء والذكاء.وكان سلمان قائدا لهذا المجمع، لكن سادة مكة لم يتقبلوا أي واحد منهم، وكانوا يؤاخذون محمدا على تدثير نفسه بسحابة سوداء، لفرط ما يحيط نفسه بالسود. لم يكن سلمان أسودا، فقد جاء من بلاد فارس، ولم يفارق أبداً هذه الأرض المباركة، ومثله، كان هؤلاء الرجال القادمون من بلدان مختلفة، الذين صاروا فاتحة الغزوات القادمة، وكان هذا ضرباً من الإنذار والتحذير يوجهه محمد، لقد كانوا سفراء أحسوا بعمق صدق الرسالة. كان هؤلاء العبيد يحكون لنا أساطيرهم، ويعرفوننا بعاداتهم، ويعطوننا تفاصيل كثيرة عن ملوكهم، وقد كانت العبودية التي قادتهم إلى هنا سبباً في هذا التمازج، وآمن هؤلاء الناس برسالة محمد، ودافعوا عنها بأجسادهم.

كان تحرير سلمان من الرق بمبادرة من محمد وصحابته، فقد تبدى بأن الرجل أثمن من أن يبقى تحت إمرة رجل آخر، حُرِّر سلمان بعقد مكاتبة يقضي بأن يهب سيده قدراً من المال، ويغرس له فسيلة نخل، تعاون أصدقاؤه وغرسوا النخل بسرعة. أُنجز العمل في جو احتفالي، وافتتح واختتم بصيحات حمد الله الواحد القهّار. ووهب الرسول قطعة ذهبية لسداد المبلغ النقدي، وهكذا سويت القضية. ومنذئذ صار فردا منا، ولا شيء يشغله أو يبعده عن أصحابه في الدعوة.

لن يحتفظ التاريخ إلا بأسماء أُسر الأقوياء، وأنا أسجل هذا على مسؤوليتي، هؤلاء الذين فكروا في غبش الدعوة في نسج شبكات، وتهيئة الأتباع في أفق مواجهة الفرقاء، وذلك حتى يأمنوا امتلاك مساعدين ضروريين في الصراع من أجل الحكم. ينتمي سلمان لصنف آخر، لقد تخلى عن عائلته وبلاده ليأتي إلى هنا، جاء وحده نحو الله، ولم يكن له من انشغال إلا الأمور الروحية، ولم يتحول ورعه لا إلى قوة ولا إلى شهرة، ساهم في تعليمنا، وفي تلقين قواعد الدين الجديد للمؤمنين، وكان يعطي نصائح قيمة للرسول، كان للعبيد والمحررين من طينته دوراً هاماً في الأوقات الصعبة، حين كان الأسياد لا يمنحون للرسول الجديد مستقبلا واعدا، هم آمنوا وعملوا للدعوة بكل إخلاص، وتحركهم فكرة مثالية في ذلك، هي المساواة بين الناس.

إن سلمان، ذو العلم الواسع واللامع، هو الحجة الحيّة التي تدحض ادعاء بهيمية العبيد الذين آمنوا، كان أبي شاهدا على التنكيل بهؤلاء المساكين، بلا مبالاة تامة من قبل الجميع. فقد صار الأسياد يزدرونهم ويوسعونهم شتما، كانوا يرون تباهي العبيد بالإيمان، وبدين النبي المزعوم، فضيحة، فهم بحسب أقوالهم أقرب للبهائم منهم للبشر، فكان قرار جلدهم بلا رحمة بالسياط، وتعريضهم لحر الشمس، صادراً عن الآلهة التي تذيب في لهيبها العصاة، الشاكين في قدرتها. «هيا احرقوا هؤلاء السود»، كان يصيح بذلك أحد سادة آل أمية. كانت التأوهات تتصاعد من تلك الأجساد، المنكل بها في الطرقات، ورغم ذلك لم تكن الألسن صامتة، بل تلهج بحمد الله الغفور الرحيم، كانت تأوهاتهم المؤثرة بتقواها، تتلخص في الإقرار بمعجزة صادرة من الله تعالى: «أحد، أحد»، وقد كانوا يرددون،

وهم يرونهم: «مسحورون، فلسان محمد الذرب، التقطهم مثلما تلتقط الحشرات الطائرة من طرف الزهور الساحرة والآكلة للحم، والتي تطفح بها غاباتهم، لقد فتنهم جرس كلامه، وأخرجهم من خدرهم، كما تفعل الطبول والجلاجل، لقد استولى سحر محمد على عقولهم البسيطة».

هكذا كان تجار قريش يبقون أعينهم مغمضة، ولا يرون أكثر من مصالحهم، ففكرهم يقتفي مسار قوافلهم، ولا يكثرت إلا بمآل بضاعتهم، كانوا قاصرين عن تقدير شساعة الأفق، الذي يتراءى أمامهم، سادرين في ملذاتهم التي لا يسأمون منها، وكانوا مكتفين بتقديم قرابين كل سنة لآلهتهم، وبممارسة شعائر حجهم البالية، وبالغارات التي تزجي أوقات فراغهم. أما هؤلاء العبيد السود في معظمهم، الذين يسومونهم سوء العذاب، قد فهموا كل شيء، لقد رأوا النور هناك، حيث لم ير أسيادهم إلا الظلام، وتمكنت أحلامهم في الحرية من أن تبدد في النهاية حلكة الليل، وتحول حنينهم إلى بلدانهم، الذي كانوا يضمنونه في الأغاني، التي كانوا يرددونها طيلة النهار، إلى تعلق قوي بالدين الجديد، فهذا الدِّين يعيد لهم آدميتهم، التي يوقنون في أعماقهم أنهم يجسدونها، وسيصيرون بشراً في كامل إنسانيتهم، مثلهم مثل الآخرين، في منأى عن كل أشكال اللعنة، التي تجعلهم منذورين بحسب معتقدات بالية، لمهمات حقيرة، لم يكن لصوت بلال، وهو يؤذن من فوق الصومعة، بلال العبد الأسود، إلا هذا المعنى.

الله أكبر. بينما كان الأثرياء كبارهم وصغارهم يزنون مردود الدين الجديد، أخذت هذه الكائنات المسكينة مسؤولية نصب راية الإسلام بشجاعة في قلب المجتمع المكي، وقد تناهى إلى سمعهم قُرب

ظهور نبي، فانتظروا طويلا، لم يسمعوا ذلك من الكهان، لكن صفاء قلوبهم الذي لا تشوبه شائبة، وإخلاصهم الفطري، ورغبتهم في انقلاب ينهي الظلم والعبودية، هو الذي أجلى لهم هذه الحقيقة، وكشف لهم نبع العطاء في هذه الصحراء القاحلة، وأقنعهم بتذوق القطوف الدانية لدين قوي، رغم أسى المحنة التي يرون أنه لا مفر منها.

كان زيد واحداً من هؤلاء، وكان يعرف أن العبودية قدر، يتقيد الشخص في شباكه، دون أن تكون لهاته العبودية علاقة بأصله، لقد عرف العديد منهم، واختبرهم، وخرج من ذلك بذكريات طيبة عنهم. ثم لقد قرأ في الأعين القاسية للمترفين شكوكا حوله هو نفسه، وما أن تقدّم حتى أُعزي بمكر إلى مقام عبد، وكان يرى أن الحد الفاصل بين الناس يتحدد في شيء آخر، بعيداً عن هذا الوسط الذي تتحكم فيه الصدفة والجشع، وهؤلاء الأتباع ـ كما حكى لي أبي ـ كانوا يعتقدون بأن النبي الجديد، سيبطل نهائيا العبودية، لكن لم يقع شيء من ذلك، وكان زيد يعرف ذلك أكثر من أي شخص آخر، كان موقنا أن حكما إلهيا سينزل عاجلا أم آجلا بهذا الخصوص، وموقف الرسول من هؤلاء الأتباع كان يبعث على التفكير: لقد كان متعلقا بهم، هم الذين يكنون له حبا كبيرا، وحدها حركاتهم ونظراتهم هي التي تشي بذلك، ولقد كان يندد بلا تنازل بالظلم، ويثني على المساواة، إذ لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى، لكن ومع هذا لا ينبغي التقليل من منزلة التسلط على الآخرين في قلوب الناس، ورجال كثر، من عظماء الإسلام، لم يفصحوا أبداً عن رأي في هذا الموضوع، ولا عبروا عن استهجان أو إدانة لهذا النظام، فقد خدمهم منذ طفولتهم جمهرة من الخدم، واستمتعوا حين أدركوا سن البلوغ بجواري لم يكترثوا أبداً بأصلهن.

لقد ضاع الحلم في هذا الخليط، وطمست الحسابات، والتحالفات، ومحي ما ولدته بعثة محمد من حلم في الحرية والأخوة، والسراب الذي تعودنا ملاحقته انسل لوحده، لكن كم مرت من أوقات جميلة في درس هذه الأحلام. ما أن وصل الرسول إلى يثرب هارباً من أذى المكيين، حتى أرسى دعائم الأخوة بين الصحابة، الذين صنعوا تلك المغامرة الرائعة، التي ستكون فاتحة التاريخ الإسلامي، لقد كانت السنة الأولى المجيدة للهجرة، نقضا لأواصر الدم، ولثقل الروابط القبلية والولاء، وصار المؤمنون إخوة، لأن لهم نفس القناعات، ونفس النظرة للعالم، وحتى الإرث أبقوه في ملك الجماعة، حتى يتسنى استعماله لاحقاً بحسب الحاجة، وبحسب الرغبات. لقد كنا رواد عالم جديد، صارت فيه الجدارة والحكمة شرطين مفروضين فيمن يتقلد أمور الناس، لكن الأمر كان أشبه ببيع طريدة قبل صيدها، فهذه الحيوية الدائمة لوشائج الولاء، تبدت أنها أكثر نجاعة مما كان يتوقع، وبواسطتها يتم تدبير أمور الناس، وبذلك انكشف أن وشائج الحب والأخوة هشة وزائلة مع أول اختبار، وقد لعب سادة قريش دوراً هاماً في ذلك، وهكذا رُدَّ كل واحد إلى القدر الذي يرسمه له نسبه وثروته، وبقي العبد عبدا.

أما اليوم، فقد صارت كل تلك الأماني مجرد ذكريات، وكل من ذكر من الصحابة والأصدقاء، يتم انتقاؤه من طرف موثقي الذاكرة، وأمام أعيننا، بجلاء، تمت كتابة تاريخ يطمس الحقيقة، ووضِع المساكين في المكان اللائق بمقامهم، وجردوا حتى من القرب الأول الذي شهدوه في بداية الدعوة، إذ كانوا درع محمد. ومن هؤلاء أصدقاء لأبي، مازالوا على سجية الإيمان، لكنهم يبكون بحرقة هذا التمييز الغريب عن فرائض ديننا. ربما في زمن قادم، قد يكون بعيدا،

سيضجر الناس من سيطرة أسياد المعسكرات المتصارعة، وسيعيد المفسرون، الذين يرومون الإنصاف، كتابة سيرة أفسدتها الرشوة وحد السيف.

لكن هؤلاء العبيد لن يظلوا مكثوفي الأيدي، بدعوى المساواة في العالم الآخر، فالكل يشهد مقتل الخليفة عمر، العادل، وهي نهاية حزينة لرجل يحتفي به الكل، لقد قتله عبدٌ، جاء يشتكي له من الغرامة المبالغ فيها، وأن سيده يجبره ظلما على دفعها له، كان يريد أن ينصفه عمر، لكن هذا الأخير أقر المالك دون أن ينصف هذا العبد في مسعاه. وهكذا أخذ هذا المظلوم حقه بيده، وطعن، بنذالة، الخليفة وهو يؤم الصلاة في المسجد، وقد ذكرت هذا المثال لأن عمى الرؤية هو سبب هذه العتمة القاتمة، والمؤمنون أصروا على تجاهل الظلم، الذي تعاني منه فئات مستضعفة، كانت أحكام الإسلام حول المساواة تفقد معناها، كلما تعلق الأمر بحقوق وواجبات كل واحد.

تركت أحاسيسي تفصح عن هواها، وهي نفسها أحاسيس أبي بخصوص وضعية العبيد، الذين آمنوا، وتعرض بعضهم لأذى قاس، لدي حساسية تجاه هذا، لأن إيماني أثار انتباهي لمساواة الناس، الذين خلقوا من نفس واحدة، وكذلك للكيفية التي تم بها التعامل مع أبي، الذي اعتبره البعض مولى غير جدير بأبوة شخص حر، رغم أنه اختاره، لكن زيداً عرف كيف يردُّ على ذلك، فكان مقامه في مستوى مزاياه الشخصية.

المؤامــرة

أشرقت الشمس على مكة، ولم يكن الوحي بعد قد شع ببريقه الخاص، ليجعل من هذه الحاضرة واسطة العقد المتلألئة، التي سيتداعى لها من كل حدب وصوب، حشود عظيمة من المؤمنين، جاؤوا من أماكن نائية، ولم يحلموا بهذا الركن القصي من الصحراء العربية، يوم رتيب يعلن عن نفسه، مثل أيام خلت وأخرى ستأتي. لم يعد سيل الناس في موعد الحج السنوي سوى ذكرى تخامر خيالات التجار، المنشغلين بأمر تجارتهم الراكدة، مر على ذلك عدة شهور، أما الآلهة التي صار طلبها قليلا، فقد دخلت في موتها الموسمي، حيث تبيت بياتا شتويا، يتراءى حزن غير عادي، شبيه بكرب منذر، يسكن نظراتها الجامدة في الحجر، ولا قافلة تتخايل في أفق الأعالي، التي تشرف على مكة وتسمى ظَهرا، ولا قافلة تتأهب للذهاب إلى أماكن بعيدة، التي اعتيد تسييرها من هنا. مكة هي مركز هذه القبيلة المسماة قريش، قبيلة محمد، وهي مشهورة بنهمها التجاري الكبير، المخلوط بميل فطري للدين، من أي جانب نظرنا لاسمها وجدنا السلطة والمال، قريش من سمك القرش، اسم يبين بجلاء القوة العربية الضارية للقبيلة، هذا القرش الذي أولع به أهل المدينة، ويأتون من أصقاع نائية من أجل الانضمام إليه.

يبدو الزمن متخثراً في هذا الصباح، إنه لمظهر خادع! إن توقفنا

عند الكآبة التي يمنحها الحر، والطعم الحريف والجاف لشيء متفحم، وعند الصمت المطبق لأرض حرشاء، ومتحجرة، ممتدة إلى ما لا نهاية، يصعب تخيل الزوبعة، التي تتهيأ في أعماق الأرض، لاجتياح هذه الأماكن. لا يمكن تبين الثورات المتعلقة بالدين بالعين المجردة، ولا توقعها بسهولة في كلام يفك ألغاز تقلبات التجارة، أو تعاقب السلالات الحاكمة، فسننها يعود دوماً لمجال الغيب، رغم ذلك كانت نار متأججة قادحة، ومندفعه مثل حمم بركان عظيم، تسري في هذه المدينة السادرة في رحابها، لكن عاداتها البسيطة، وتطلعاتها، كانت مسكونة بهاجس العظمة، لا يأخذها أي زائر مأخذ الجد، وحدهم بعض الناس، الذين يعيشون في معظمهم على هامش تقاليد قومهم ومعتقداتهم، كانوا يملكون مفاتيح ما سيقع، جاءهم ذلك من بعيد، من فراسة ما توقعوا المد والجزر الذي يتشكل، دون معرفة ما ينطوي عليه من أسرار.

مع مطلع الصبح، كان بعض المشاة يعودون من الجامع لدورهم مسرعين، حيث يذهبون لأداء صلاة الفجر، لم يكونوا كثراً بعد، ولم يكن بالإمكان تمييز المسلمين عن الذين يسمون آنذاك الصابئة، لم يتمكن الدين الجديد بعد من استقطاب جموع المؤمنين، الذين تمكن من حشدهم بعد ذلك، كان المؤمنون يتوخون أقصى الحذر والتكتم، لكي لا يستثيروا الناس المعرضين عن دينهم، ولم تكن شعيرة الصلاة قد حددت بعد، لم تفرض الصلوات الخمس بعد يوميا، كان الإسلام في اختبار التشكل.

لم يكن الزقاق قد امتلأ بعد بالناس، فالمتاجر الفاخرة المكدسة بالأثواب، وبالتوابل والعطور، تتضوع منها روائح وألوان الشرق المختلطة، ولم تُفتح أبوابها بعد، لا يوجد في هذا الوقت المبكر إلا

عبيد رعاة، يسيرون برؤوس منكسة، هاشّين من حين لآخر على قطعانهم، يسيرون نحو المراعي القريبة من المدينة. كانت وجوههم مربدة، وتبدو على سحناتهم الجافة والمحروقة آثار شمس ضارية لا ترحم، تنيخ عليهم بأشعتها الحارقة طيلة اليوم، إن عدم اغتسالهم، زيادة على شعورهم الطويلة، يمنحهم مظهراً أقرب للحيوان منه للإنسان، يحدث أن يبقوا فترات طويلة في الخارج مع قطعانهم حتى يختلطوا بها، هؤلاء المعذبون جيئ بهم عن طريق البحر من إفريقيا القريبة، كانوا يمثلون عدم المساواة الصارخ في مكة، ووضعية الإقصاء والإهانة التي يتعرض لها العمال.

تراءت زمرة بالقرب من دور أل هاشم، غرباء عن المدينة، كانوا يتشاورون فيما بينهم، لم يكونوا مستعجلين في خبط الباب، وصلوا متأخرين هذه الليلة، فقضوها في الجامع المفتوح للحجاج وعابري السبيل، لا معارف لهم هنا، وليس لهم بدون شك حلفاء، ليستضيفوهم بحفاوة، تكفل القيمون على سقاية ورفادة الحجيج بخدمتهم، فعبور الصحراء متعب، ويتطلب دوماً محطات استراحة.

كانوا متجمعين أمام بيت محمد، زوج خديجة بنت خويلد، ويترددون في نقر الباب، يشي ذلك ببعض القلق البادي في نظراتهم وحركاتهم، ويبدو أن الحوار المتشنج بينهم، يدور حول موضوع حساس بدون شك، هل ينتظرون خروج أحد؟ في كل الأحوال، ونحن نراهم هكذا، لا يمكن تخمين ما يشغلهم، أشار أحدهم للباب، كأنه يؤكد صحة العنوان، لم يكن غريبا عن المكان، إنه أحد خدم الكعبة، صادفوه حين وصولهم، وأخذوا منه المعلومات التي تنقصهم، خرج الرجل من بينهم أخيراً، ونقر الباب كأنه بهذا يقول لهم: لا ينبغي التردد في هذا.

خرجت امرأة سوداء وسدت الباب بقامتها الفارهة، تفرست بنظرة صارمة وجوه القادمين غير المنتَظرين، متسائلة عن أسباب مجيئهم. إنها إحدى موالي محمد ورثها عن أبيه، أمّ أيمن أمي، كانت هي. ليست لي ذكريات محددة عن الحدث، كنت آنذاك رضيعا تركبه في ظهرها، ولأقل الحق، فلست متأكدا من صحة هذه الزيارة. لم ينبس أبي أبداً ببنت شفة حول الموضوع، والأنكى من هذا أن هذه الزيارة في هذا الصباح الباكر لمكة، التي صم آذاننا الإخباريون بتفاصيلها غير مضبوطة إلى الآن.

بُهت الزوار وهم يسمعون الصوت الصارم للأمَة، وهي تعنفهم بنظرات ثاقبة على هذا المجيء المبكر المثير لغضبها، كانت لأم أيمن شخصية قوية أعرف بعض ملامحها، إذ كانت تواجه الرسول نفسه أحياناً، هو الذي كان يمازحها، لمتعة استثارة غضبها المحمل بالود والرقة. كانت سيدة الدار خديجة قد استيقظت لتوها وتنتظر وجبة الفطور. لكن الخادمة التي تعرضت عدة مرات لتأنيب صارم بخصوص معاملة الضيوف لم تبرح باب المنزل. فمنذ أن لم يعد الوحي سرا، بدأ الناس يقطعون مسافات طويلة للتعرف على الرسول. وصل أحد خدم الدار في حينه حاملا سطل حليب طازج، أعطته ناقة قبل خروج القطيع للمراعي، أدْخَلته، وأشارت له آمرة للمكان الذي عليه أن يضع فيه السطل، كانت مهابة ومسموعة، فهي التي تمسك في يديها أمور الدار، ما خفي منها وما ظهر، كانت أمي تتمتع في ذلك المكان باحترام عام.

كان الزوار منشغلين بحل خلاف مع محمد بن عبد الله، رب البيت كما تناهى إلى أسماعهم، ترددوا للحظة، ثم أبدوا انشغالهم بأمر ولد يدعى زيد، يوجد في هذه النواحي، كانوا يجهلون تماماً

بأنهم أمام زوجته، أربك تعليقهم أم أيمن، فلم تجد من قول إلا دعوتهم للعودة لاحقا. خرج محمد وزيد مبكراً لأداء الصلاة، ولن يتأخرا في المجيء، انتبهت بسرعة، وهي ترفع عينيها مرتبكة من بقائها واقفة أمام عتبة الدار، بينما سيدها وزوجها كانا على بعد نظر منها، أشارت لهما بأصبعها، ليتعرف عليهما الزوار، ثم اختفت في الداخل.

وجهوا التحية لمحمد، بما فرضته عليهم شخصيته، والمهابة التي تشع منه، ثم حملقوا في وجه زيد بذهول، الذي لم يكن يفهم بعد ما يدور حوله، باشروا الخوض في الموضوع الذي يلهب شفاههم، والذي جاؤوا من أجله، أخذ الكلمة من تلك الجماعة شخص، يبدو أنه زعيمهم قائلاً:

السلام عليكما أنا حارثة أبو زيد.

ثم أفرغ من جوفه الكلام المكرور عن السبي، جعلت الأخبار الرسمية من هذه الواقعة، مقدمة لتحديد هوية زيد، وجعلها مفسرو القرآن مدخلا ضرورياً للتعليقات المتكلفة أحياناً لفرض الحجاب الإسلامي، تم تنضيد تفاصيل الأحداث، بشكل يعطي الانطباع بالأمانة والدقة في استعادة ما وقع. فجدتي لأبي المفترضة، والتي تحمل اسم سودة بنت طلبة بن عبد عامر، لحقت بقافلة في يوم من فصل الربيع، كانت فيه الشمس رحيمة، وذهبت لتزور ذويها، يدها في يد ابنها آخذة إياه لرؤية أقربائه من أمه، كان عليها أن تفعل ذلك، فمنذ مدة طويلة لم تذهب هي وابنها، ولدها الوحيد، ففي هذا المجتمع الأبوي، الذي تعيش فيه يكاد الأقرباء من جهة الأم، ونظراً لقلة الاحترام الذي يَحْضون به، بل للازدراء المشهود الذي يتعرضون

له، أن ينسوا إذا لم يحذر المرء ذلك، لذا كانت تقود طفلها كلما سنحت الفرصة لها، ولكن ليس بالقدر الذي تريده نظراً لتعب السفر، تأخذه عند أخواله، لتبقي جدوة القرابة متقدة، فلا أحد يعلم ما تخبئه الأقدار. لم يكن لا زوجها، ولا أي أحد آخر من أقاربها معهما في هذا السفر، الذي كان يبدو بأنه بلا مشاكل تذكر، فالمرأة متعودة على السير مع القوافل الآمنة، ولها معرفة ودربة في الوصول إلى غاياتها بدون عثرات، من هذه الجهة من قريتها كانت الأمور هادئة، ثم إن موسم الحج فتح أبوابه، وفيه يحرم القيام بأفعال ضد الآخرين، يوقر الناس الأشهر الحرم منذ زمن بعيد، ويتوقفون عن القتال، ويكرسونها للتجارة والعبادة، لذا لا يخاطر المرء بنفسه، وهو يسافر في تلك الأشهر حاجّاً، فالآلهة تكتنفه برعايتها، وحين يصل سيقدم لها القرابين. لكن للأسف، كانت الظروف قاسية بسبب الجفاف المتوالي، مما جعل بعض الجماعات في حالة من الاضطراب والفوضى، يصعب التحكم فيها، وهكذا وقعت قلاقل وغارات، وإن وصل صدى ذلك إلى من يقدرون الأمور حق قدرها، فإن القافلة التي كانت معها سودة وابنها، لم تأخذ مأخذ الجد هذه الأخبار، وأصرت على الانطلاق، دون أخذ الاحتياطات اللازمة، فوقع ما كان يخشى. لقد تعرضت القافلة لغارة، ونهبت عن آخرها، ضاع من سودة ابنها، الذي سبي مع القطيع والأشياء الثمينة، عادت القافلة أدراجها، خالية الوفاض، في اليوم نفسه، لم تكن هناك أي أخبار عن قطاع الطرق، الذين أخذوا الطفل، ولا أي فكرة عن نواياهم، هذا على الأقل ماجاء في رواية مدعي أبوة زيد، الذي وصل في هذا الصباح إلى مكة.

كان سبي النساء والأطفال عملا شائعا بين القبائل العربية، وفوق

ذلك، مقبول من الجميع، بل إنه كان مقننا، يعرف كيف يتم التعامل معه، تعرف تبعاته وما يتوجب فعله، لكي يحافظ الشخص على حياته أو يسترد ذويه، وحدها القوافل القوية، التي تسيرها العشائر الكبيرة، تعبر الفيافي والقفار دون هاجس التعرض لأي غارة، فلا يهاجم إلا من لم يكن يمتلك الوسائل الضرورية لحماية نفسه. كانت الأماكن التي يتواجد فيها قطاع الطرق تقريباً محددة، والذين لهم خبرة في المجال، يعرفون الفاعلين المحتملين لكل عملية، بل يعرفون حتى من يأمر بها، لذا كان بإمكان الأقوياء العثور على أقربائهم الضحايا، وقطاع الطرق يغنمون بإجبار العائلات على تقديم فدية لهم، ولم يكونوا يحرصون حتى على التخفي. لم تكن أم زيد منتمية إلى هذه الفئة، فقد سافرت لوحدها دون اتخاذ الاحتياطات اللازمة، آخذة معها ضحية جذابة، كان النخاسون يبحثون عن مثيلاتها لدى قطاع الطرق، امرأة بهذه الوضعية، لا ينبغي أن تغامر بالسفر لوحدها مع قافلة، كأنها ترمي بنفسها في شدق الذئب.

وهكذا تبخر الابن، ولم يحصلوا إلا على أنباء متفاوتة، بعد زمن طويل، طويل جداً، بمحض الصدفة، الأخبار رجراجة بهذا الصدد، ولا تعطي أي مؤشر دال، باستثناء أخبار الأب بوجود ابنه المختطف، والذي كبر في السن بمكة، عند رجل يدعى محمد بن عبد الله الهاشمي، وتمكنت بعثة للحج من قبيلته من رؤيته، والتعرف على زيد، إنه هو، هو حقاً، لم يشكُّوا فيه، كما أكدوا بعد عودتهم، بل إنهم أكدوا بأنهم حرصوا على الاستخبار عنه، لدى عدة شهود في السوق، والذين زكوا رأيهم فيه. فبعد نهب القافلة، اقتيد زيد رفقة أطفال آخرين إلى سوق عكاظ، السوق الأشهر والأكبر آنذاك، فاشتري من طرف حكيم بن حزام لحسابه الخاص، أو لحساب

خديجة بنت خويلد، الذي كان قريباً لها، لا مشاحة، المهم أنه دخل بيت خديجة التي أهدته لزوجها الشاب محمد آنذاك.

لهذا كان هؤلاء الناس هنا في هذا الصباح الباكر، ليتأكدوا وليقوموا بما يلزم لاستعادة قريبهم، بسط الأب الألم والمكابدة التي عاناها من جراء فقدان ابنه، وأنشد أبياتا شعرية عن الحزن الذي رجه لمدة طويلة، والتي صار أقرباؤه يرددونها. يعرف أن محمدا أمين، كل من التقاه في الطريق يؤكد ذلك، لذا فهو جاء ملتمساً منه إعادة زيد له، كانت العادة تقضي لاستعادة قريب من يد الغرباء أداء ثمن لذلك، فاقترح الأب تقديم مبلغ من المال مقابل زيد، لم ينبس محمد بكلمة واحدة طيلة كلام الأب. دعا زيداً وقال له:

ـ أتعرف هؤلاء يا بني؟

ـ نعم، أجاب زيد، هذا أبي وهذا عمي.

ـ تعرف حبي لك، اختر الآن بينهم وبيني.

ـ لا يمكن أن أفضل عليك أي شخص، أنت أبي وأمي.

بسماع هاته الكلمات، لم يتمالك الأب نفسه:

ـ كيف يا زيد! تفضِّل العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك؟

ـ هذا لأني رأيت لدى هذا الرجل أشياء مختلفة، ولا يمكن أن أنفصل عنه لأي سبب من الأسباب.

تنقل لنا الأخبار، بأنه في هذه اللحظة بالذات، وتبعا لما دار من كلام، تأثر محمد بالغ الأثر بموقف زيد، المحرك للمشاعر، فجعله ابنه، ووريثه الشرعي، كمكافأة على هذا الدفق من الشغف، وليس فقط الحب! فلقاؤهما الأول كان حكاية حب متبادل، كأنهما من

صلب بعضهما، كانا يقتسمان هذا المسار المشترك، والجراح العميقة، التي يحملانها كل بطريقته الخاصة.

من جهتي، لم أر أبداً هذا الجدَّ، الذي ظهر متأخرا، ولا الجدَّة التي تتراءى من ورائه، لإعطاء مصداقية لرواية الزوار، إلى هذا الصباح الكئيب في مكة، وطيلة حياتي لم أتوصل إطلاقا بأية زيارة ولا كلمة من طرف أحد، يعضد صدقية هذا الانتماء، وينزع عنه أي تشكيك، رغم أنِّي كنت أتوق لملاقاة أم أبي، إن كانت مازالت على قيد الحياة، ولكنها ليست هنا، لأنها ومنذ البداية لم تكن. فقد كان زيد مجردا من ذكراها، التي لم يكن يحب استحضارها، لأنها لا تنطوي إلا على الموت، بالنسبة لي فقد ماتت ودفنت في عزلة الغريب، الذي لا صورة دقيقة لي عنه، فالغريب يبقى غريبا إلى الأبد. أما بالنسبة لأب والدي، فحتى رحلة القافلة المذكورة تبدو بعيدة الاحتمال، إنه ظِلٌّ ما مستتر في جهة ما، ولو كان مفترضا، سمح لهذه المرأة بأن تلقي بنفسها رفقة ابنها في المجهول، الذي لم تعد منه أبدا.

إن هذا المجيء المرتجل في الفجر، مجيء شبحي وليس واقعيا، إنه خيال اختلق ورتقت أجزاؤه، لصناعة ماض لزيد، حين اقتضت الضرورة المستعجلة إبعاده عن محمد، تم اختلاق قصة له، فوجدوا له أبا، وجدا، وجدة، وأثخنوا في الماضي السحيق لتعداد أجداده المفترضين. إن الكتبة الذين كان عليهم دفن هوية زيد بن محمد، أجبروا على نبش قبر أخرى وإخراجها، ولأنهم لم يجدوا شيئاً ذا بال فقد اختلقوه، ومادام ليس هناك سند لكذبهم، فقد كانوا منزعجين في برهنتهم على عدم شرعية زيد، التي تعوزهم دلائل إثباتها، فمهما أوغلوا في الماضي لا يجدون غير السواد، وهذا اللقاء المعجز الذي

خلف زيدا، وهذا الرحم الذي يمكن أن يلده لا أحد يعرفه إلا محمد، هذا السر بقي كالشوكة في حلوقهم وينبغي دفنه.

هوس الإخباريين الرسميين أخرق، ولكنه ماكر وناجح، إنهم حريصون على صقل رواياتهم، وإفراغها من كل فظاظة، يمكنها أن تزري بالمظهر العام للرواية. يستميت هذا الهوس في تزييف الواقع، وتخيل وقائع لتبرير مفاصل السرد، وإعطائه تناسقا قابلا للهضم. انتهت الفطرة الشعبية، والشائعة المخادعة، والنميمة السيئة، التي تغذيها ألسنة خبيثة، باختلاق حدث كهذا، لم يقع في أي مكان، لكنه يعزز تهيؤات ومعتقدات، تزرع روحاً في الصورة التي يرونها مناسبة لهذا الشخص أو ذاك، لتعظيمه أو للحط من قدره، لم يجد مؤرخو الوقائع حرجا من الاغتراف من هذا الافتراء، الذي يدمجونه في نسيج أعم، يحرصون على تجويد حواشيه، وتقوية هيكله، لإيهامنا بأن الأمور لم يكن بإمكانها أن تحدث إلا هكذا. ويكملونه باللجوء إلى التزوير، مستغلين شغف عامة الناس بمشاهد طافحة بالدموع والمعاناة واليأس والتوبة، يبجل العامة هذه المشاهد، كما يهوون رؤية حز رؤوس المحكوم عليهم، وصلب أجسادهم التي ستشويها مجدداً الشمس الحارقة، يجول قطاع الطرق الصحراء مشعلين النار وناهبين، ثم يعرضون في الأسواق ما غنموه من أفعالهم القبيحة، فتيات جميلات، سيصرن مكرهات محظيات، وأطفال صغار سيشتغلون كخدم في القصور، وسيكدون في المحاجر، إن الجميلة التي اختطفها الفارس، وهو يعدو بأقصى سرعة، فوق الرمال الذهبية سراب يستثير خيال الشعراء، الذين يمجدون العمل الباهر للصوص، وهكذا يتم خلط التعدي على الناس، بشجاعة الفارس النبيل المستحق للإعجاب. يخلق هذا لدى رواة الأخبار توترات في

مجرى السرد، من شأنها إلهاب حماس السامعين، أفضل من رواية حياة بسيطة بلا مشاكل، كل ما شاع حول زيد يندرج في هذا الإطار، لنواصل الإبحار في الخيال.

ليتسنى تغليف الأحداث المروية بنكهة الحقيقة، وصف زيد أثناء وصوله كشخص تعرض عنه الفتيات: فهو أسود، قصير، أفطس الأنف، بكلمة واحدة أسود وقبيح! الصفات المذمومة التي من شأنها تحريك نفور القارئ البسيط منه، ودفعه للاعتراض كلية على زواج زينب به، والاحتفاء بطلاقهما الذي تلا ذلك.

هكذا نقل رواة الأخبار الوقائع، فالرسول زوج زيداً بزينب إحدى قريباته، زينب بنت جحش، وهي إحدى حفيدات الجد الأبرز عبد المطلب، ولم تدعن الفتاة لهذا الزواج، الذي يحط من قدرها، بربطها بعبد أسود! ولولا إلحاح محمد، الذي كانت تحبه وتحترمه، والذي طلب منها تلبية طلبه، لما رفعت رأسها دلالة الموافقة، وروحها تكاد تزهق، فبينما كانت قريباتها يتزوجن الفتيان المرموقين في قريش، أجبرت هي على الانتحار اجتماعيا، بهذا الزواج الشاق، ففي كل الأحوال كانت تفضل أن تبقى عانسا!

عقد الزواج رغم كل شيء وبسرعة، قبل أن تتمرس الجميلة وراء رفض عنيد، لكنه كان متعثراً منذ بداياته نفسها، لذا توقع له بأن لا يدوم طويلا، سنة أو على الأكثر سنة ونصف، وكما كان متوقعا، فقد قاطع شرفاء قريش الاحتفال بهذا الزواج، لم يكن من الوارد تشريفهم لعبد بأنف أفطس، وذي أصول غامضة، يخدم محمد بن عبد الله. كانوا يتهامسون في ليالي مكة بأن زيداً لن يقترب من زينب، فقد أقسمت على ذلك علانية، ومنعته من وصالها ولوفي الحلم، فلا

شيء منه ينبغي أن يصل لرحمها، فالعائلات الشريفة تحرص أشدَّ الحرص على صفاء النسب، ويقتضي ذلك تجنب كل عنصر لا يمكن التحكم فيه من مقام خسيس، فمن شأن ذلك أن يمس بمكانة العائلة، ويهدد بجعلها خارج دائرة السباق نحو إدارة أمور المدينة، لكن الله لم يشأ ذلك، ولم يحدث أي شيء، فزينب لم تلد أبداً من زيد.

تقزز زيد، ولم يفتأ يتشكى من النفور الذي تسْحقه به زوجته الشرعية، كانت تجد متعة في إظهار برودة اتجاهه، لا تستجيب لمحاولاته في التقرب منها، ولا توليه أدنى احترام، وتوبخه على كل نزواته، ولأنها ارتأت بأنها عانت بما يكفي، فقد كسرت الصمت، أسرت بهذا لصديقاتها المقربات، ثم قررت إبلاغ محمد بأمرها. لم يرد الإنصات لها معتقدا بأن الخلاف عابر، بعث ابنه إلى بيته طالبا منه إنهاء الخلاف، الذي يرجهما كزوجين، كان محمد منزعجا للغاية من هذه القضية، دون أن يعرف سبب ذلك، وبحسب ما ورد عند بعضهم، دون أن نمتلك دليلاً واحداً على صحته، فقد زار ذات يوم زيدا، ففتحت زينب الباب، بدت بثوب خفيف، يكشف عن بعض صدرها، مما سبب اضطراباً عند محمد، الذي غمغم كلاما غير مفهوم، وعاد مسرعا، فهمت زينب التي كانت امرأة جميلة، مشهورة بأناقتها، وبإدراكها لمزاياها، الارتباك الذي طرأ على الرسول بمجرد رؤيتها.

عانى الرسول من ذلك، فهذه المرأة زوجة ابنه، وأنب نفسه بشدة، وهو يستعيد بلا انقطاع مشهد نظراته المحملة بالشهوة إليها، وما غمغم من كلام مشدوه إزاء فتنتها، التي لا قبل له بها، بقي يتردد كوخز في صدره، ولو أنه أدان هذه الكلمات، فإنه لم يستطع

إنكارها، لأنها بقيت دوماً في شفتيه تحرقهما، حاول ألا يفكر في ما وقع، ليصد الباب في وجه ما يجيش به صدره.

وهو في كيد، غادر الجامع متأخراً في تلك الليلة، وما أن دخل بيته حتى لجأ للصلاة، لتحصنه ضد المعصية، ويطلب من الله بأن يغفر له، فهو يعرف سعة رحمته، لكنه يدرك كذلك أن الرحيم عليم بما تخفي الصدور. قرأ آيات تلعن الشيطان الذي أراد غوايته، لإلهائه بكل السبل عن تبليغ رسالته، الأمر هكذا إذن! عليه أن يبقى ثابتا، وألا ينقاد وراء الشيطان، الذي يتسلل من الفجوات لإفساد الروح، وتزيين المعصية إليه، لقد ضُلِّل في طرفة عين، وأَقْسَم بألا يقع مجدداً في هذا الشرك، الذي لا يناسب إلا ضعاف النفوس من المؤمنين غير الثابتين، وهو رسول معصوم لا تأتيه الفاحشة لا من بين يديه ولا من خلفه. حين عاد الرسول إلى بيته، اعترضت طريقه عائشة، زوجته الشابة ذات السحنة الفتية، والنظر الثاقب، وقد أثارت فضولها هيئته الشاحبة الساهمة، اعترضته بحركة ودية، حتى يتسنى لها معرفة ما ألم به، فمر دون أن يلتفت إليها، وأغلق على نفسه، نادراً ما فعل هذا، حين بقيت بدون جواب، تبادلت نظرات مستفهمة مع الزوجات الأخريات، اللواتي التقت نظراتهن حول الهدف نفسه، لكن لم يكن لواحدة منهن أدنى معرفة بما حل به.

كيف يمكن لرسول أن يسمح بأن يتم التلاعب به بهذه الطريقة المستهجنة؟ طفق يدعو ربه، ويلعن الشيطان وهو يسبح، وصورة زيد وخصوصاً زينب تملأ ذهنه، هوس بمعنى الكلمة، هذه هي الكلمة الدقيقة، لكن ليس بالمعنى المنحط والبهيمي، ولكنه هوس في كل الأحوال سكنه ليعذبه، كان يُخلط له كعمل الجن صورة هذه المرأة المشتهاة، وهي تتجلى في عتبة الباب، وذكرى ابنه المحبوب، الذي

جاء يستشيره منذ مدة قريبة في شأن ما طرأ بينهما، هذا الحلم المزعج لم يكن سماديرا تتراءى له، فالأشياء مرت على النحو المذكور، اجتاحه إحساس آسر بالذنب، وكان بصدد البحث عما يعاقب به نفسه بدون تأخر، صد نفسه دون أن يعرف كيف، ولا يرى قبسَ نور في الظلمة الحالكة التي تلفه.

صحيح أن ذلك لم يكن وليد الصدفة، فالوقائع تتالت بفظاظة، وارتبط الواحد منها بالآخر، فقد تناهى إليه بأن زينب مصممة على الانفصال عن زوجها، مهما كلفها الأمر، ولو أدت ثمن حريتها بالذهب، بل إنها أرسلت إحدى صديقاتها إلى سودة، الزوجة المتقدمة في السن التي أعقبت خديجة، لكي تتوسط لها لدى محمد، ولأن كلمة هذه لم تعد مسموعة منذ مدة، كان الرسول يرى زوجاته بالتوالي واحدة كل ليلة، تخلت هي عن ليلتها لفائدة عائشة، لأنها كانت تريد نيل رضاها. زارت هذه الأخيرة وأخبرتها برسالة زينب، ما أن علمت عائشة ذلك، حتى تنبهت وأخرجت أظافرها، فمنذ مدة وهي تحذر قريبة الرسول، فحدسها الأنثوي دلها على استشعار أشياء، كان زوجها يضحك منها إن فاتحته فيها، غير أنها هي كانت تأخذها مأخذ الجد.

هذا هو السبب الذي جعل محمدا غير قادر على التخلص من هذه القضية، التي تسمم حياته في الوقت الحالي، كان يعول بشكل دائم على معالجتها، لتهدئة الخواطر، وإيجاد حل بالتراضي، وذلك بالاستعانة بدائرة المقربين، القادرين على التأثير إيجابياً في مجرى الأحداث. لكن الأمور الآن اتخذت منحى آخر، وتفكيره لم يهده إلى أي حل، من شأنه فك طلاسم هذه المتاهة المعقدة بشكل كبير، تقوى إحساسه بالذنب، بسبب دوره الكبير والحاسم في عقد هذا

الزواج إنه هو، نعم هو من أجبر قريبته الممتنعة على الإذعان، والكلمة في مكانها. حين فتحت الباب في هذا الزي الخفيف، الذي هو من صنيع الشيطان، رأى في وجهها، ورغم موقفها المرحب والموقر، مسحة مؤاخذة، بلا تنازل تحثه على إخراجها من هذه الورطة التي وضعها فيها، لم يكن له من ملاذ غير الله، فبدونه سيضيع، لذا فهو ينتظر حكمه.

وجاء الفرج، فقد قضى الله وسيعلن حكمه، إنها يده غير المرئية التي صنعت ما بدا أنه إثم بالنسبة للرسول، إن حكم الله يتجاوز الأشخاص، ويهدف لإرساء دعائم مجتمع الإسلام الجديد، هذا ما رآه المفسرون، أمر النص القرآني محمد بعدم التنكر لأحاسيسه الفعلية، ولرغبته المكبوتة في هذه المرأة، قريبته التي خلقت له هذه الحيرة، التي ألبته ضد نفسه كثيراً، إنه لم يكن الخطّاء الذي لا غفران لذنبه.

كان يتوجب على زيد ابنه، وبالضبط ابنه السابق، أن يطلقها ويتزوجها هو، هكذا قضت الإرادة الإلهية التي هي في أفقها اللامتناهي والغامض مقياس الناس الوحيد في الرؤية، هذا ما وقع. ففي النص، في آياته التي ذكر فيها زيد صراحة لتمجيده والإشادة به، كما ذهبت لذلك الأخبار، ولكي لا يبقى أي لبس حول المسألة، فحين يتعلق الأمر بحكم إلهي ينبغي الإذعان له دون طرح أي سؤال. دعا محمد زيدا، وأسمعه الحكم فاغتبط لذلك، طلق بدون تأخر، بل إنه هو من كلف من طرف والده بخطبة زينب، ذهل لرؤيتها، فوجدها قد خلت من مهامها المنزلية، أخبرها بما جاء من أجله، وطلب يدها للزواج من محمد.

لم آنس أبداً في القدرة على مساءلته حول هذا المشهد المؤلم،

وركنت لأحاسيسي أنا حول الأمر، فبترك الحكم الإلهي جانبا، سمحت لنفسي بأن أفكر هكذا، محاولا أن أعيش مجدداً وعلى مقاسي أنا، هذا الحدث، هذا الألم، هذا الإنكار للذات بالذهاب لطلب يد امرأة طلقها للتو لأبيه، امرأة أفردته إفراد البعير المعبد. قرأت كل تعاليق المفسرين، ووجدت عندهم انزعاجا في سرد الوقائع، فزيد أذعن لهذا الأمر منكلا بنفسه، سار رغم نفسه، وسار مدفوعا وفاء لمن أحبه كأب، وشغف به كرسول. قيل بأنه تكلم معها بهذا الصدد، وتراجع مديراً ظهره، لم يجرؤ على رؤيتها وجها لوجه، ربما لإخفاء الحزن الذي يعتصر حلقه، وهو يطلب يد هذه المرأة، التي كانت ورغم كل شيء زوجته، ولم تعد له أبدا، وربما كان هذا الظهر المولي نحوها تعبيراً عن كبرياء متعالي، يريد أن يقول لها بأنه يمنحها لرجل آخر، لم ينظر في عينيها، فجدوة الرغبة قد خفتت بداخل صدره، ولم تعد تسري فيه الشهوة تجاهها، هكذا زعموا أن العرب ينفصلون، وهم يديرون ظهورهم بحسب العرف، الذي لم يعد معمولا به اليوم، قال لها بأن رغبة محمد في اتخاذها زوجة هو أمر الله القوي الجبار، قبلت وهي معتزة بكونها كانت موضوع أمر قادم من السماء.

انتشر الخبر في المدينة ومعه النميمة: «كيف يتخذ زوجة ابنه امرأة له، إن هذا الرجل شهواني، لا يرتوي ولا أخلاق له!» حتى في صفوف المؤمنين، بقي عدد لا يستهان بهم مبلبلا، وبعضهم لم يغض الطرف عن الأمر، ووصل بهم الحد إلى طلب توضيحات، بلغ الأمر مبلغ الفضيحة، كان يتوجب رؤية ما وقع! أقبل النمامون بفرح على الموضوع، وحاولوا تأليب الناس ضد محمد، والشعراء الذين كانوا يكرهونه نظموا قصائد هجاء، كنت يومها يافعا في سنٍّ يسمح لي

بفهم الأمور، وصدمت لحجم الاغتياب، الذي لم أكن أملك القدرة على مواجهته، كنت في الواقع طريحاً في التراب، فزيد أبي كان متهما، ولم يخرج للناس طيلة مدة هذه الواقعة.

كان الحدث بالنسبة للرسول فرصة لمناجاة الله طويلا، لم يكن يخرج إلا لإمامة الصلاة، وإعلان ما جاءه من وحي جديد، ويكلف كتبته بقراءة الآيات المعنية، كان يتهرب بهذا من الاستفهامات المستهجنة للبدو عديمي التربية، وينادونه بدون احترام. لقد غُسل زواجه من زينب مما لحقه من ضرر، من طرف الله رب السماوات، وأعلن ابنه زيداً رسمياً مولى، وأبطلت عملية التبني، التي كانت حكما قانونيا جاريا به العمل، ولم يعد للابن بالتبني الحق في حمل اسم أبيه بالتبني، ولكن اسم والده الفعلي، ولم يعد له بالتالي الحق في الإرث مثل أطفال الفراش، وكان للحكم أثر رجعي، فزيد بن محمد، صار زيداً بن حارثة، فالرسول لم يتزوج امرأة مطلقة من ابنه، فصلة الزواج إذاً شرعية، وتستجيب للأحكام الجديدة للإسلام.

نُظِّم حفل كبير للاحتفال بالزواج، وكان ذلك شيئاً استثنائيا بالنسبة لمحمد، فحتى في زواجه بالبكر عائشة، بنت صحابي الرعيل الأول أبي بكر، لم ير الناس ذلك الاهتياج، كانت زينب في أعلى عليين، وقد أثبتت ذلك كتابة وقائع الإخباريين، كانت الزوجات الأخريات ينتظرنها بنوايا عدائية، متحرقات لمعرفة موقف عائشة، التي كانت تجد الله يسارع لإرضاء رغبات محمد بكرم واضح، هكذا كانت تمازحه بين الجد والهزل، لكن زوجها كان يتظاهر بأنه لا يسمعها.

كانت زينب ترى عالمها بفوقية، مرددة بأنها تزوجت بأمر من السماء وراضية بالامتياز الذي مُنح لها بالمقارنة مع ضرائرها. كان

الاحتفال بأبواب مفتوحة، لم أحضر حينذاك، فقد كنت أتدرب على حمل السلاح، والانخراط في الغزوات بعيداً عن المدينة، تداعى مئات من الناس على الدار، معظمهم حركهم فضول رؤية الزواج بأم أعينهم، الزواج الذي ناقشه الجميع. أرادوا رؤية من تشبه الزوجة، وكيف ستجري الأمور، كانت وليمة حقيقية، أتخم فيها الحاضرون، إذ تناوبت المجموعات على الموائد المنصوبة، ولم يتوقف تقديم اللحوم والألبان، تأخر إخلاء الموائد نظراً لتوافد الناس بكثرة، تقدم الليل والناس وبعضهم أطال في الجدال، غير فاطنين لضرورة انسحابهم بعد انقضاء كل شيء منذ مدة طويلة. أبدى محمد امتعاضه بشكل متكتم من هذه الوضعية، التي تعوزها الشهامة، حيث بدأ الفضول يعوض انعدام الحياء، غادر المكان عدة مرات، على أمل أن ينتهي ذهابه وإيابه المتشنج إلى إقناع الضيوف بالعودة إلى دورهم، وبعد انتظار طويل وبفضل الله خرجوا.

لم يبتعد أنس بن مالك الذي خدم الرسول لعشرة سنين، خطوة واحدة عنه، وهو الذي حكى لي بالتفاصيل هذه الأحداث غير المتوقعة، فقد رأى بذهول معجزة تحدث إبان هذا الاحتفال بالعرس فالطعام كان وافرا، ولا ينقص أبداً من وفرته تلك، كأن الملائكة يحرصون على توفره، إبان ذلك كانت زينب تدير ظهرها للضيوف خجلا، فقد كانت منزعجة للنظرات المنقبة داخل روحها، في هذا اليوم أوحي بآية الحجاب. ذهب محمد إلى البيت المعد لزوجته الجديدة، لاستقبالها والدخول بها، وأسدل ستاراً يحول بينه وبين زوجاته وأنظار الغرباء، هذا اليوم بقي خالدا، لأنه خلق تحولا في الحياة اليومية للمسلم، لم يعد بالإمكان الذهاب إلى دور الأقرباء بدون إخبارهم، كما كان الأمر في السابق، ولم يعد النساء يخرجن

بالحرية التي كانت لهن في السابق، ولا يتكلمن مع الرجال بوجه مكشوف، وحدهن الإيماء بقيت لهن حرية مواجهة الخارج بوجه مكشوف، دون الالتزام بالأحكام الجديدة للحجاب، كان يلزم متسع من الوقت لفرض هذه الأحكام الجديدة، فالأحكام وحتى القرآنية منها، لا تتغير بين عشية وضحاها.

كل هذه الأشياء دخلت بمرور الأيام في العادات، كما تَنَبَّهْتُ لذلك في هذه اللحظة نفسها، وأنا أجرجر خطواتي الرخوة في أزقة حاضرة الإسلام دمشق تحت حكم الأمويين، ولا أتوقف عن استحضار زمن أبي سفيان، أب هذه السلالة، وهو متعلق بركاب محمد، فقد استفاد جيداً من قربه ذاك، ربما غداً سيقوم عباس عم محمد، الذي كان يمسك بلجام مركوبه بشيء لامع، لكن الممالك والتواريخ التي أنجزت لها الآن، لا تهمني بتاتا، فأنا منشغل بالإنسان أساسا.

وراء الأحداث الجسيمة دينيا وسياسيا، هناك رجال ونساء من لحم ودم، أحبوا، وعانوا، وجعلوا آخرين يعانون، أحاول أن أرى هؤلاء الناس وهم في خضم عيشهم في كل الأيام، أحاول سبر عواطفهم، وأذهب إلى ما وراء ما يتراءى من أحداث، للتمييز بين الغث والسمين. الرواية الرسمية تطمس الجوانب الحقيقية من الحياة المعيشة، فهي توزع الأدوار الأولى بحسب مزاج الوقت، ودرجة قرب الأفراد من الجالسين على العروش، أنظر لكل هذا من بعيد، تتآكلني الرغبة في قلب الترتيبات، وإحقاق الحق، وذلك بكشف ما تم تجاهله، وبما أنني لست من رواة الأخبار المشهورين، فلست سوى ابن عبد محرر، فإنني أعود بهذه النوايا لرسم صورة أخرى لزيد، غير تلك الصورة الظالمة والمستهجنة التي قدمت عنه. كان زيد

أحد الوجوه اللامعة في جيله لعلمه وشهامته وشجاعته، فقد نضج الرجل مبكرا، واجتمعت فيه الخصال الحميدة للقائد العسكري، والمستشار الأمين، والمزاج النبيل الحاد، دون أن نتحدث عن مصاهراته، لولا هذا لما اختاره الرسول، وأحبه باستمرار، لكن هناك مواطن غموض لم يحن الوقت بعد لفتحها.

المبتور

الله أكبر، كان صوتا جهوريا، ذا رجفات ورعشات ساحرة، إنه صوت بلال، مؤذن الرسول، الذي غدا جزءاً من أجواء المدينة المنورة المفعمة بالتقوى، هو من يضبط نبرات حياة المدينة، ويضبط إيقاع نومها وصحوها. حين وصلنا إلى هنا كان بلال يدعو للصلاة واقفا، فوق سطح دار مجاورة للجامع، بناها محمد، لم تكن هناك بعد منارة ولو صغيرة، فيحدث والليل ينشر عباءته على الدور، أن يتسلق خلسة السطح، وينتظر الفجرَ ليحرِّر صوته من الصمت الطويل الذي فرضته عليه الحلكة. تأخذني هذه الصورة الحافلة، وتذكرني بوضعيتنا كمهاجرين يعانقون جدار ديار جديدة، في بلاد عربية لازالت غارقة في سبات الكفر، إن انتصاب أول مئذنة، وصعود درجها المتكرر من طرف المؤذن، يكرس صعود محمد والإسلام، الذي يمثله الوجه الأسود لبلال، ذائع الصيت، فالإيمان الجديد يتصعد في السماء.

للآذان حكاية لن نمل من حكيها، فجماعة المؤمنين خُيِّرت في البداية بين عدة صيغ، فبعضهم اختار قرن الجدي كما عند اليهود القاطنين بجوارنا، والبعض الآخر دافع بشدة عن الناقوس النصراني، ونظراً لوجود تشابه بين جماعة المؤمنين الأولى والصابئة، فقد مال الميزان نحو الناقوس، وقد ذهبوا بعيداً في هذا الخيار بصناعة واحد

عند حداد، كان يستعد لتسليمه، وحُيِّزت السواري. لنصبه وبينما كان الناس مسترسلين في الجدال حول المسألة، جاء رجل يدعى عبد الله بن زيد لرؤية الرسول، وأخبره بما رأى في حلمه: «يا رسول الله، لقد طاف بي في هذه الليلة طائف، مرَّ بي رجل عليه ثوبان أخضران، ويحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ فقال ما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك، قلت: وما هو؟ قال الله أكبر...» إنه النص الذي يتردد في الآذان، وقد سار عمر في نفس المنحى ملهما بذلك، وعضدت السماء الرؤيا، أمر محمد بلالا بأن يرفع الآذان لأول مرة، وصار المؤذن الرسمي، فأضاف جملة من عنده: «الصلاة خير من النوم»، تنبيها للمؤمنين الذين يتلكأون في هجران مراقدهم الدافئة، للالتحاق بأول الداخلين للجامع، فالله سيوفي أجر كل من ترك الدنيا من أجل الصلاة.

انتصرت الكلمة على نغمة الموسيقى، فالله لم يخاطب رسله إلا بالكلمات، كلم موسى، وبلَّغ المَلكُ جبريل كلامه الساحر لمحمد. وللكلام تاريخ طويل عند العرب، انتصر فيه دوماً همس الكلمات على نغم الآلات، ومنذ زمن طويل كان الشعر أداة مضمونة لجلب لب الناس وإثارة حماستهم، لذا فالعلوُّ بصوت الله، وتمجيده في مطلع النهار كان صيحة انتصار، تُذكِّر المؤمنين بأهمية الاستيقاظ لحمده وتعظيمه. وكان اختيار بلال لرفع الآذان مثقلا بالعديد من المعاني، اختير عبد سابق أسود، عذبه مالكوه القدامى الكفار للجهر باسم إيمان جديد، وهذا لا يقر إلا بالمساواة والعدالة، وحده هو كان الرمز القوي لذلك، وكان تأثير ذلك معتبرا، ومنذئذ دخل الآذان في عادات مجتمع صار ينظر للمستقبل بثقة.

أقبل محمد الرسول التّائه بين القبائل على المحطة الأخيرة من رحلته، وتلك القبائل التي كانت معرضة عن دعوته، صارت الآن مقبلة على بابه، يراهم متعطشين بتواضع لسماع كلامه، والزقاق الذي يتواجد فيه بالمدينة، لم يعد يخلو من الناس، وحتى الفضوليون الذين بلبلهم صيته صاروا يأتون لرؤيته وسماعه. كان صف من الخدم يقف أمام الباب، يستطلع مسببات ومقام القادمين، ويحرص على استتباب النظام، لم يكن ذلك بقصر سلطان فخم، بل مسكن بسيط لرسول بدون أبهة، مسكن يشع منه نور داخلي، لكن رغم هذا كان يتوجب أخذ الحيطة والحذر إزاء سيل الناس المتعاظم.

كنت مندهشاً بهذا الذهاب والإياب اليومي، الذي أترقبه بعيني حينما أكون متحرراً مما يشغلني، أفعل ذلك لأقنع نفسي بأن زمن النكسات قد ولى بلا رجعة. وكان أبو مسرح الملقب بأنس، وهو من أوائل المهاجرين، هو أول مصفاة موضوعة أمام القادمين، يعرفهم جلهم، ويفطن لما تخفيه وجوههم من أقنعة بشوشة أو عابسة، يتمتع بنظر ثاقب ونافذ، ويأتي بشكل دائم لرؤيتي، متشكيا من المجيء الحثيث للناس، الذي لا يترك له برهة للراحة، لكن في العمق كنت أحس به معتزا بالمهمة التي يقوم بها، وعلى الخصوص، لكونه كان يحيِّي كبار القوم، الذين يمرون من بين يديه. وكان رباح الأسود، الذي صار لون بشرته اسما له، الحاجز الأخير في ملاقاة الرسول، فهو المكلف بالسهر على راحتة في لحظات خلوته، وقد كان رجلا قليل الكلام متفانيا في عمله.

لم تترك الأمور للصدفة، كما فُعل في بدايات الاستقرار في المدينة، فمحيط الرسول لم يفتأ يتكاثر، وكل العشائر الكبرى تسعى بشدة إلى وضع أحد ذويها بالقرب الحميم من الرسول، وهكذا

شُكِّلت مجموعة من الدوائر بشكل تدريجي، وحاول القادمون الأوائل التسلل لها قبل أن يتم إقفالها، بقي مدخل الدار في يد المقربين، وكان الحرس يتطلبون الصمت، واحترام قواعد الضيافة من طرف الذين سمح لهم بالدخول.

كنا بالكاد في السنة السادسة للتقويم الجديد، الذي لم يثبت نهائيا إلا في عهد الخليفة عمر، وفي الأفق القريب، كانت نهاية الرسول تؤرق في صمت الأذهان، والكل كان يعد العدة، ليكون على أهبة الاستعداد لذلك اليوم العصيب.

كل يوم يمر، والزوار يتوافدون من كل الآفاق على المدينة، لتحقيق غايات وبواعث متباينة، يأتون لافتكاك أسرى الغزوة الأخيرة، أو لتقديم البيعة لمحمد، والانضواء تحت ظل أمة الإسلام، أو للتفاوض في شأن معاهدة ما. ولكن إلى جانب هذا الجم الغفير الذي يأتي لقضاء أغراضه، والذي هو في تزايد مستمر، يأتي مؤمنون آخرون بحثا عن توضيح، أو أجوبة عن الخلافات التي تطرأ لهم، ولم يتمكن الصحابة المكلفون بالشؤون التعليمية شفاء غليلهم، فمتن بعض الآيات صار مبهما، وطيف الأسئلة المطروحة اتسع أكثر فأكثر، وزيادة على ذلك، فقد كانت تنشب بعض الخلافات حول نسيج النص، وكيفية قراءته، مما يؤجج اللبس، ويخلق الجدل، ولم يكن يتوجب ترك هذه الخلافات، تشتد وتسمم الأجواء، وقد جاءت بعض الآيات المتأخرة والمشهودة لوضع حد لكل هذا، فمنذ زمن غير بعيد، عاد أحد كتبة الرسول إلى مكة، وادعى بأن محمد مُدَّعي، وهو من يؤلف آياته.

صحوت منذ أن تبين الخيط الأبيض من الأسود، وحينما كنت

عائدا من الجامع، رأيت امرأة، تهرول نحو بيت الرسول، فأثارت انتباهي، وخامرتني خاطرة رؤيتها في مكان ما، تتبعتها بعيني، وحرصت بعد ذلك، بأن أستخبر عن السبب الذي دعاها لتخرج مسرعة الخطو، في عزِّ الصبح. صدفة غريبة! ضائعة، مشعَّثة، خبطت الباب طالبة عائشة، التي صارت ضرباً من القيادة الروحية للنساء، وعن طريقها أضحى بإمكانهن الوصول إلى محمد، بدا وكأن القادمة مصابة بلوثة أو مس عقلي. حاول حارس الباب بصعوبة بالغة تهدئتها، ثم وصله صوت ناعم من داخل الدار، يسمح لها بالدخول. دعتها خادمة عائشة بريرة، وهي أمَة أعتقتها، واحتفظت بها في خدمتها، أشارت لها بأن تجلس فوق طنفسة منسوجة من الوبر باهتة اللون، فقد كانت بريرة متعودة على مجيء الناس، في كل الأوقات لرؤية الرسول. جاءت عائشة وجلست مقابلة لها، دفعت نحوها وسادة، لتريحها في جلستها، ابتسمت في وجهها، واستمعت لها، ثم أدخلتها بدون تأخير عند زوجها.

كانت تدعى سهلة، هذا هو اسمها، تسكن في الطرف الآخر من المدينة، أخذت علما بآيتي التبني والحجاب، اللتين نزلتا منذ شهور مضت، بشكل مفاجئ وفظ، كان ذلك كصخرة نزلت فوق رأس هذه المرأة المسكينة، المنشغلة بهدوء في أداء واجبات منزلها، مهتمة بأهلها دون أن تكترث للآخرين. أنَّبها أحد الصحابة في هذا الصباح نفسه، لسبب بسيط، هو أنه رآها تحضن بحرارة ابنها سالم، الذي أضحى شابا، وتبقيه ملتصقا بحضنها، ثم تنهال على وجهه بالقبلات، وسيبتعد عنها ربما لمدة طويلة.عمد المفتي المرتجل - صاروا كثراً هذه الأيام - إلى حشد المارة ليعطيهم بها المثال، وكرر بدون تدبر كلاما منذراً بصواعق جهنم، بل إنه رفع يده وهمَّ بضربها

على وجهها، فحال زوجها أبو حذيفة بينها وبينه، أبعد سهلة عن المتعصِّب، وفسر لها بصوت هامس، كيف أن ابنها لم يعد ابنها في نظر الأحكام الإسلامية الجديدة، وأضاف بأن عليها من الآن فصاعدا، أن تتحجب كلما دخل عليها. أخذ علما هو بهذا منذ مدة، ولكنه ورفقا بصحتها لم يجرؤ على إخبارها، كان سالم بؤبؤ عينيها، لذا كانت الصدمة شديدة، صدمة نعم، صدمة حقيقية، والكلمة أصابت في وصف حالتها، ارتمت على الأرض، وبدأت تخدش خديها بأظافرها، كأنها بُلِّغت خبر موته، اختلط عليها الأمر، ولم تكن قادرة على تفهم هذا التحريم، الذي يضاد الطبيعة، فالأواصر القوية التي لا يمكن قطعها، لا تخضع لأي قدَر حتى لو سنّته الآلهة.

سالم بن عتبة، ابن ربيعة هذا هو اسمه، كان في بداياته مجرد عبد لدى تبيتة بنت يعار، امرأة كريمة، وهاته للصدفة تنتسب للمدنية، وقد أعتقته، وصار سائبا، يعني يتمتع بحرية تامة، وهو شكل من عتق العبيد، كان قبل الإسلام يجعل من العبد إنسانا حرا، لا يمكن لأي شخص أن يدعي أدنى حق فيه، يصير فردا من أفراد الجماعة، ويتمتع بكامل حقوقه كالآخرين تماما. بعد عتقه دخل في خدمة مهاجر بالمدينة، أبو حذيفة، الذي تبناه كما تبنى الرسول أبي زيد، ارتبطت سهلة زوجته بهذا الابن، هبة السماء إليها، كما ترتبط الواحدة بابن من صلبها، وتمكن حبه من قلبها إذ لم يكن لها ابن آخر، كانت مغرمة به تلبي له كل نزواته، لذا رجتها موعظة الصحابي قصير النظر بقوة، استشاط جسدها شدة لهذا، ولأنها أنكرت ما سمعته، فقد سارت وهي تشكو، وتلعن كل من حولها في مشهد مثير للشفقة، كأن بها مسّ.

ما أن أُدخلت على الرسول، حتى جثت على ركبتيه، قائلة: «يا

رسول الله سالم ابننا! ابننا!»، صاحت مرددة، كأنها تريد أن تقول له: «ألا تفهمون؟ أليس لكم أطفال حتى تظهروا كل هذه القسوة؟ ألا تعرفون معنى الشغف بابن؟» لم تحرك عائشة ساكنا، هي التي في العادة تشير إلى المحتجين، الذي يخاطبون الرسول على هذا الشكل، بقيت واجمة كقطعة رخام. أصابت سهلة كبد وجع عميق لدى الرسول، دون أن تعرف حكاية زيد، والأسى العميق الذي يحسه محمد، اغرورقت عيناه، لم تفهم كيف يمكن التنكر لابن، اختير وأسبغت عليه الأمومة والأبوة في احترام تام للأعراف والأحكام، أجهدوا أنفسهم في شرح الآية، ولم تكن لها حاجة بأية شروح، وذكروا الله وأوامره ليقنعوها، لكنها لم تكن قادرة على التفهم ولا الاستماع، كانت منكفئة على حبها لابنها، مسعرة إياه بداخلها، مخافة أن ينتزعوا منها حبها نفسه بحيلة ما، ماذا بإمكانها أن تفعل؟ كان سالم عترتها هي، وعترة زوجها، عترتهما الوحيدة، وقد عزم أبو حذيفة على تزويجه بابنة أخيه، فاطمة بنت الوليد بن عتبة، كانت أواصر القرابة وبعيداً عن الزوجين قوية، هل يمكن قطعها بقضاءٍ ما؟ هل يمتلك أحد حق ذلك؟ كيف يمكن تفسير إرادة الإله للناس البسطاء، إله من صفاته الرحمة والرأفة؟

بما أن النسب عن طريق التبني قد أبطل، فسالم لم يعد بإمكانه رؤية أمه إلا محجبة، بدا الحكم بلا معنى للزوجين، جرح نازف فتحه نكال الحجاب بدون رحمة كل يوم، بل كل لحظة. رق قلب محمد لهذه المرأة، الصادقة والثائرة بالفطرة، وخاف أن تفقد عقلها، فأمرها بأن تعطي ثدييها لسالم خمس مرات على الأقل، حتى يتسنى له القرب منها، بوصفه ابنها بالرضاعة، لكن هذه الحيلة لا تنطبق إلا عليها، ولا يمكن بأي حال تعميمها، أخذ محمد حرية التشريع لها في عين المكان.

لكن بقي سالم في أعين الحكام، المولى المشار إليه في الآية المعلومة، مثله مثل أبي، والإجراء صارم في نظر المبعوث الإلهي من الآن فصاعدا، لم يكن من شأن هذا الإجراء الانشغال بالخسائر التي بإمكانه أن يسببها، لم يكن إجراء إنسانيا بل إداريا، لا مكان فيه للعواطف. وهكذا حين توفي الابن المعفي بعث الخليفة أبو بكر إرثه لسيدته سهلة، لأن الأسياد كانوا يرثون من يعتقوهم، رفضت بحزم، وصُدمت لاعتبار ابنها بمثابة عبد لها! أجابت الخليفة عمر الجواب نفسه، الذي أراد أن يقنعها بقبول الإرث.

لم يمر إبطال الشكل القديم للتبني إذن مرور الكرام، وإن لم يَرُق ذلك للتاريخ الرسمي، يتستر تحت صمت مشين إزاءه، مختبئاً وراء الإرادة الإلهية، فقد تكشف ذلك الإبطال مهولا بالنسبة لآباء اقتسموا كل شيء مع أبنائهم، كيف يمكن لهؤلاء أن يشطبوا بجرة قلم كائنا عزيزا من حياتهم، من اهتماماتهم، من ذاكرتهم، والذي يوكل لهذا الابن في العادة أمر المحافظة عليها بعد وفاتهم؟ كان ذلك مستحيلا بالنسبة لعدد لا يستهان بهم.

وها هو زيد، أكثر من مثال على هذا، هو الذي عاش أزيد من أربعين سنة تحت صفة ابن محمد! أربعون عاما من زمننا، إنها حياة برمتها، حياة كلها بمعاناتها بأفراحها ومآسيها، مدة زمنية ليس لنا فيها أمام أنفسنا إلا الآخر، الأب والابن، بينما اختفى آخرون، مدة زمن تؤكد وتقوي فيها المآتم العلاقة، حيث يأتي العمل المشترك، القناعات المشتركة، الإيمان بالله، لِتُختم بهذا الصِّلة شبه الأمومية بين كائنات. وحده القدر جمع بينهما، حياة تصرمت، وهي هنا خلفنا، جرت مجرى ماء هادئ يتهادى فيه ما لا يحصى من الذكريات، حياة انصرمت ولا نملك إزاءها شيئاً آخر، حتى آية قرآنية ليست قادرة على

الدفع لنسيانها كلية، ولمحوها بما أنها تبدت عنيدة ومقاومة للأحكام، هكذا كان النسب حصنا منيعا بين الأب والابن، فبدنو أجله عاش محمد هذا الحب المكبوت مع «محبوبه» زيد، كما كان يحلو له القول، وكل هذا أرادوا طمسه بالصمت، كما لو أنه لم يوجد قط.

رغم أنهم أبطلوا هذه الصلة، فقد استمرت خارج الأحكام، انكفأت على نفسها متلافية الأنظار السامة، ووجدت لنفسها ملاذا في القلوب، هناك كانت ترتع بطلاقة، فالفرقاء يعرفون بأن الذين نالوا من زيد، وسالم والآخرين، وكل الناس البسطاء، الذين لم يكن باستطاعتهم إسماع صوتهم، وبقوا صامتين من الذهول، لا تهمهم شؤون القلب وهم لا يفقهون ذلك. فالموت يخبط خبط عشواء، في هذه الصحراء غير المضيافة والقاسية، والعائلات هنا تعرف ما يعنيه الفقد، فهي تفقد في الطريق عدة أفراد منها، مثل قربان شعائري مقدم لتستمر في العيش، وحب من يخوضون معها أهوال الطريق، لكن حين يأتي الموت ليبتز الجماعة، ويهددها في عقبها، فهي تفتح ذراعيها، وتحضن من يمد لها يده، تتبنى هؤلاء كأبناء محبوبين، أبناء فعليين، يصير هؤلاء الأبناء كنور العينين، لأنهم ضمدوا جرحاً، لم يكن ليندمل بدونهم، يصيرون أغلى من الغائبين، لأنهم عبروا عن رغبتهم في أن يكونوا أبناء، واختيروا ليكونوا كذلك. إبطال هذا النسب فتح الباب لمصراعيه لمِنْجل الموت، لكي يحصد حتى الدمن والذكريات، ومنع الأنام من حق الحب، وأن يكون لهم أبناء عن طريق التبني كما دأب على ذلك آباءهم وأجدادهم، لم يكن محمد نشازا، هو الذي خَلَق الموت من حوله فراغا، لذا لم يكن تعييني على رأس غزوة عِقابية في آخر أيامه، خالياً من المعنى، من المؤكد،

أنه فعل ذلك لأنني محارب مرموق، لكنني كلفت بهذا لأنني أولا، وخصوصا، صلة حية، تحتفي بذكرى ابن فقد مبكراً في أرض المعركة، ومازال قلب محمد يخفق أسى.

لقد اختار وهو يعرف تبعات اختياره، وَثِق في القدر الذي وضع زيداً في مساره، ووضعه تحت نظره الذي لم ينكس حين التقى بنظره، حمد الله الذي أراده أن يبارك عمله، وأخذ ابنه من يده، ليواصلا السير سويّاً في دروب الحياة، ومنذئذ لم يندما كلاهما أبداً لقد درعا طرق البلاد العربية، ليقوما بما كان يقوم به أجدادهما من قبلهما، البيع والشراء في الأسواق، وسماع الشعراء، والحلم بمستقبل آخر لهؤلاء الناس المتعطشين للجديد. وكان زيد هو أول من آمن، الأول مع خديجة المرأة الفاضلة والمحبوبة، والذي تابع عن قرب أهوال الوحي، والذي حمد الله لاختيار أبيه كرسول، لكنه وقبل حصول ذلك كان قد رأى بشائر النبوة، ورحمة الله تكنف الرجل الفذ، لقد توجس خيفة وهو يرى صحته تتردى، وآمن قبل الآخرين، قبل كل من سيصنفون كأوائل فيما بعد حتى يبرُزُوا بعد ذلك مكانتهم في دوائر الحكم، وهكذا قالوا: «أبو بكر هو أول رجل آمن، وعلي أول طفل، وخديجة أول امرأة» أما بالنسبة لزيد، الذي لا يصلون حتى لتجاهله، يعطونه رتبة أول عبد محرَّرٍ آمن والسلام، إن الدعوة للمساواة التي شكلت قوة الدين الجديد، تم وأدها بقوة وهي بعد في مهدها، لم يكن بالإمكان الإفلات من هوس التصنيف الضروري، لوضع الناس في مراتب، فخديجة السند وموضع السر، والمحبوبة لم تعد هي الأولى بالنسبة لكل الفئات، بل فقط أول امرأة منزوية وراء حجاب. اصطدمت المساواة التي صدح بها الإسلام بأعراف منغلقة على نفسها، وذات حدود شديدة وواضحة، هذا التصنيف وتوزيع

الأدوار سيتم تقنينه لاحقاً، حين كان الأمر يتعلق بالخلافة، وفي انتظار ذلك كان زيد الأقرب إلى قلب أبيه.

إن اقتسام رحلة محفوفة بالمخاطر، مشتركة بين الأب والابن، واقتسام المتاعب، والشكوك ونشوة وانخطاف نزول الوحي، أثرت بالغ الأثر فيهما، وجعلت من زيد موضع ثقة لمحمد، لا خدش فيها، حتى أنه لم يكن نظيراً له من حوله، هذه الثقة جعلت منه بطل المهمات الصعبة والسرية. ومازالت ذكرياتي بهذا الصدد دقيقة، ولا يمكنني أن أروي كل التفاصيل، مازلت أذكر كما لو أن الحدث وقع أمس، فقد تأثرت بالغ التأثر، حين رأيته يندفع نحو الجموع رافعا لواء النصر، في منتصف نهار يوم الأحد، قافلا إلى المدينة بسرعة من معركة بدر، اقترن اسم أبي بظهوره هذا باسم المعركة، جاء ليخبر الناس بمآل المعركة، ويعلن غلبة نور الإيمان لظلمات الكفر، لم تكن بدر سوى القمر في اكتماله وتمامه! لم يكن اختيار زيد لهذه المهمة صدفة، كنت أنا وآخرون نودع الثرى رقية بنت الرسول، وزوجة عثمان التي وافتها المنية في اليوم نفسه، ظهر زيد وعبد الله بن رواحة الشاعر، والفارس الجسور، الذي كان يجعل وجه حسان بن ثابت يحمر خجلا لجبنه ونذالته، الشاعر المفضل لدى الرسول، اختار عبد الله بعد أن حُرم من الشعر المفضل لديه شعر الغزل والخمر، خوض المعارك، وسيتشهد لاحقاً رفقة زيد.

في يوم بدر هذا، انتشر خبر مجيئهم في لمح بصر بالمدينة، ووصلنا صداه ونحن في المقبرة، سمعت أولا جلبة ضاجة، فالمبعوثان وصلا كريح صرصر عاتية إلى المصلى، وهناك التحقنا بهما، كان زيد محاطاً من كل جانب، من طرف حشد متعطش لخبر طريف، يتجاذب الناس أطراف عدته الحربية، ملحين عليه في

إخبارهم بالجديد. كانت الأسئلة تتطاير من هنا وهناك، دعاهم زيد بحركة من يده للهدوء، فران صمت أموات على الجمع، بدأ بذكر أسماء الشهداء واحداً واحداً، شهداء غزوة مجيدة، ستُثَبِّت أقدام الإسلام في الأرض، ثم عَرَّج على قائمة قتلى وأسرى الطرف الآخر، والتي تثبت مآل المعركة وجسامتها. أبان زيد في هذا اليوم عن كونه خطيبا مفوها، قادراً على أن يمسك بتلابيب الناس، إن هذه القدرة مرفوقة بشجاعته في القتال، تجعل منه أميراً كاملاً، له القدرة على قيادة الرجال في الحرب، ودفعهم للانتصار.

كانت لحظة عظيمة، بالنسبة لرجل احتقر بعد الهجرة إلى المدينة، من طرف الهاشميين، الذي كانوا يخافون تقديمه كخليفة لرسول الله، كانت معجزة حقيقية، فبعض الناس أذهلهم الخبر، ولم يصدقوا زيدا، فبدأوا يتهامسون، ويرددون فيما بينهم: «إنه هنا لأنه هرب!» أما المنافقون الذين كانوا في جحورهم، فقد خرجوا ليعلنوا هزيمة محمد وصحابته: «انظروا إنه يركب مطية سيده هذا، لأنه مات!» بقي زيد الذي أغضبه كلامهم مذهولا، فسوء النية يجعله دوماً مشدوها، تكالبوا عليه لتضليله، ولزرع الشك في ذهنه، ولإثبات كذبه أمام الناس، لقد وهبه محمد مطيته، نظراً لأهمية الخبر الذي سيحمله: «أي بني، هاهو فرسي، اركبه للشهادة على النصر!» كان هذا الخبر من الأهمية بما كان، فمن شأنه إمالة جموع غفيرة، من جهة إلى جهة أخرى، لكن كلام زيد أخرس المتشككين، كلام حق، مصحوب بعلامات، لا يمكن دحضها، فكان لها وقع حسن في نفوس الناس، وهكذا فالمهمات الخطيرة، تتطلب رجالا يوثق فيهم بشدة.

في الحرب كما في السلم، كان زيد هو الخيار الأول للرسول.

فما أن حط هذا الأخير رحاله بالمدينة حتى انشغل بسلامة أهله الذين تركهم في مكة، فكلّفه رفقة أحد عبيده بجلبهم، سارا فوق جملين وبحوزتهما خمسمائة درهم، منحهما إياها أبو بكر ليستعينا بها على مصاريف السفر. اتخذا دليلاً لهُ تجربةٌ كبيرة، نفس الدليل الذي استعان به محمد والصدِّيق، تمكنا من جلب فاطمة وأم كلثوم وسودة وأم أيمن، وجلبوا معهم عائلة أبي بكر بينهم عائشة وأخوها، كان سنها سبعة أعوام آنئذ. جئت في نفس الرحلة الهنية رغم المخاوف التي كانت تحيط بنا. وعند حلول موكبنا بالمدينة كان محمد يبني أول صومعة في الإسلام، وبعض الدور في جوارها. بقيت عائشة في بيت والدها ثمانية أشهر قبل أن تنتقل إلى بيت زوجها، وعد بها أبوبكر الرسولَ وهي غضة وغير مدركةٍ لما ينتظرها كزوجة، كانت صغيرة جداً، ولا تفارق لعبها، مهيضة، حتى أن محمد كان يجلسها فوق حجره كابنة له، طفلة نعم، لكنها بذهن ثاقب، ستجعل منه أداة حرب في صراعاتها، لتشريف المرأة في الإسلام، ستصير لها مكانة مرموقة في حياة الرسول، لأنها برهنت عن نضج وخبرة، أكبر من سنها، بنيت دارها مقابل الجامع، ومن هناك كان الرسول يخرج للصلاة، وهناك التحق بالرفيق الأعلى.

جرت هذه الرحلة الأولى للتجميع العائلي مجرى العادة، ولم تثر الانتباه، ولم تكن الأخيرة، ولا الأكثر عرضة للخطر، مثلما جرى حين قرر محمد استرجاع ابنته زينب، الرهينة لدى قرشي مكة، وبما أن نجم محمد بدأ في الصعود بهجرته إلى المدينة، فإن المكيين بدأوا في القيام بكل ما من شأنه الإساءة له، ومن ذلك التنكيل بالمؤمنين، وبمن بقي في عين المكان، حاولت ابنته المتزوجة بأبي العاص بن الربيع، وهو أموي قريب لخديجة، أن تتسلل خلسة من مكة،

فأمسكوها في الطريق، وضربوها ضرباً مبرحاً، أفضى ذلك لإجهاضها، مما جعلها عاقراً، غضب كل أقربائها لما حل بها، لذا قرر والدها تهجيرها قبل فوات الأوان، وكان له الرجل الذي يعول عليه في هذه المهمات المحفوفة بالمخاطر.

دعى زيداً وأسر له رأساً لرأس، فالمهمة تتطلب التكتم «اذهب يا بني، عليك أن تعيد لي ابنتي آمنة سالمة!»قال له ذلك وهو يخبط على كتفه، كان ذلك بمثابة الرضى الأبوي، الذي يرافقه في مهماته، أحس بالفخر، وعلم أنه محسود لهذه الحظوة، لذا رحل لتوه، طلب منه أداء مهمته في سرية تامة، خلع محمد خاتما من أصبعه، وأعطاه لزيد حتى تتعرف عليه في مكة. طار وهو يركب جملا، حدس هو الآخر جسامة المهمة، فسار بأقصى سرعة ممكنة، بجوار دار زينب ودار صهريها، اقترب من راع يحرس قطيع بنت الرسول، ومرتبط أشد الارتباط بسيدته، لكنه متخلف عقليا، شرح له بالكلمات والحركات كيف يقدم الخاتم لسيدته، لتعرف بأنه جاء إلى مكة، فهمت زينب وهي ترى الخاتم المتفق عليه قبلا، لتلافي كل سوء تفاهم، دلها الراعي على مكان اختباء زيد، فالتحقت به وحدها، حتى لا ينفضح أمرهما، في الليل اقترب خيال منه، لكنه بقي حذرا، فبإمكان خائن متسلل بينهم التشبه بامرأة قادمة، ليخرجه من جحره. كان لأعدائهم أعين في كل مكان، لكنها كانت هي، لقد عرفها من العلامة المتفق عليها، التلويح بالخاتم، الذي يلتمع بأشعة نور تقاوم الحلكة، عرض عليها أن تركب أمامه، ففضلت الركوب وراءه، أرادت الالتصاق به حتى تحس بأمان أكبر، طيلة الطريق، وكانت يديها المرتعشتين تشيان بالخوف الشديد، الذي يعتصر قلبها، فهي قد عانت في المحاولة الأولى، طمأنها وسارا بدون مشاكل، يسترهما

الليل، كانت أخته شقيقته بكل تأكيد، لأنهما عاشا طويلاً تحت نفس السقف.

لم يلجأ محمد لا إلى علي ولا إلى أي هاشمي آخر، فالصراع الصامت بين هؤلاء، غذى المخاوف بداخله إزاء زينب التي فقدت طفلها، يمكن تخيل الشرعية التي كانت ستكون لهذا الطفل، الذي فقدته، شرعية تعضدها قوة آبائه، مصيبة زينب كانت في صالح العلويين. لم تستعد زينب قواها بعد تلك الحادثة، ولم تعد تفارقها آلام ما تحت السُّرَّة، خلَّفت طفلين من زواجها، بنت اسمها أمامة، تزوجها علي بعد وفاة فاطمة، وولدت علي، مات وهو بعد طفل، رغم أن الرسول حملها فوق أكتافه حين فتح مكة، لم أعد أتذكر ما وقع بالضبط، فكثرٌ هُم من يدَّعون مثل هذه المكرمات، ماتت زينب في السنة الثامنة من الهجرة، مخلفة حزنا كبيراً ببيت النبوة، حيث أكثر الفقد أعداد الغائبين، كانت البنت البكر، وكان يكن لها مشاعر قوية، حتى أنه تكلم عدة مرات وأمام الناس عن تفضيله لها.

أنا، وغيري كُثر، يمكن أن نشهد على هذا، نفى معسكر علي دوماً هذا التصريح، بوازع سياسي لا شأن له أبداً بالعواطف، كانت زينب متزوجة من أموي تاجر، وداهية يعرف من أين تؤكل الكتف، كما يقال عندنا، ولمحمد طيبة جعلته لا يحذرهم كما يتوجب، بل كانت لهم مكانة معتبرة لديه، أناس متعودون على الدسائس، وعلى القيادة، والمداراة، وإن اقتضت الظروف دس الرأس في الرمال، حتى تمر العاصفة. وهكذا لم يعمد زوج زينب إلى تطليقها، لأن عشيرته كانت تلعب بدون شك ورقة صعود محتمل لمحمد، وفي كل الأحوال، فقد نجح في أن يجعله يرِقُّ له، حين أسرَه محاربونا في غزوة بدر، بعثت زينب حِلْيا، منحتها إياها أمها خديجة! وأثر

ذلك في محمد، حتى إنه ذرف دموع لوعة إزاء قدر الموت، الذي ضرب ضربته القاسية في بيته، ومنحه حنانا كبيراً تجاه ذويه، أمر صحابته بإطلاق سراح الزوج الكافر، محبةً لابنته. وقد نجح هذا الصنيع للزوج مرة أخرى حين أُسِر، وهو على رأس قافلة مكية، كان زيد ضمن من قاموا بالغارة، لجأ في المدينة إلى بيت زينب، طالبا حمايتها كما تقتضي الأعراف، وكذا لكي تتدخل لفائدته، وهذا ما حصل، فقد أطلق سراحه، وأعيد له كل ما أخذ منه، آنئذ أسلم دون أن يقطع مع أهله في مكة، لقد فهم اتجاه الريح، أظهر الأمويون بأنهم سادة فن التفاوض، أنا موقن بهذا اليوم، وأنا أرى الحنكة السياسة، التي أبان عليها الجن معاوية في الحكم.

لم تكن لزيد علاقة سيئة معهم، لكن آنذاك كان الأمر يتعلق بشجاعته، التي جعلت منه رجل المهمات الصعبة والدقيقة، كان إقدامه فطريا، مرده ربما لما عاشه في الطفولة، كما ذكرت أمه، وإلى الاستماتة التي شكلها بداخله، وهو يتخطى الصعاب، واحتفظت بها ذاكرته، فارس لا يجارى وقائد صلب، كان أميراً من بين الأمراء. لذا اختير دوماً لقيادة الغزوات المهمة، وكلما كان قائد في محنة، بُعِثَ أبي لمساعدته أو تعويضه، كان علي يحذره، ويخاف منه، إلى درجة أنه لم يكن يَحْتك به، ولم يكن أحد قادراً في حياة الرسول على ردع الخليفة القادم سوى زيد، فقد رآه يشب، وعلمه أشياء كثيرة، وأعانه على ركوب الفرس، ودربه على فنون القتال، رأيت وسمعت علي يتشكى لمحمد من كونه لا يقدر على مُجابهة زيد، الذي لا يستجيب له إلا بكلمة مباشرة ومبطنة من محمد، وقد تأكد بعد كل هذه المسارات، كم كانت صدور الهاشميين مغتاظة من أبي، الذي يؤاخذون عليه تكبره، وكونه ابنا غير شرعي، وليغفر لي الله، إنني أشك في أنهم هم من دبروا أمر إبطال نسبه.

الحسد الذي تحول شيئاً فشيئاً إلى غيرة، ثم إلى بغض شديد، يتخفى وراء عطف ماكر، كل ذلك كان بسبب نجاحات زيد، والإعجاب الذي يبديه محمد إزاءه، أمام مرأى الناس. كانت ملكاته تتجاوز ميادين القتال، لكنه في هذا المجال على الخصوص لا يجارى، لذا استهدفت حياته من طرف كثيرين، وعملوا على سقوطه، كان صعوده مشهودا، ولم يشركني أبداً في المطامع، التي انطوى عليها إبان صعود نجمه، نجم متلألئ براق، عملوا على طمسه، وخفوته في ذاكرة الإسلام، أنا على يقين بأن هذا الطمس كان فعلا مقصودا، لمعسكر قوي يمسك بتلابيب ما يقال، وما يكتب طبعا، تذكره كتب الأخبار كأمير بارز، لكنها تتوقف عند هذا الاعتراف الباقي تحت الحجر، قالت عائشة تغمدها الله برحمته، حين كان الرسول في النزع الأخير، لو كان زيد مازال حيا، لاستخلفه محمد، شهدت لهذا الرجل هي التي لم ترد الشهادة لغيره، لأن مزاياه وفضله كبير، ومنها استمد قيمته. لم يكن زيد ابن كبار قريش، بل ابن قلب محمد، الذي أحبه وشغف به، لذا حيكت المؤامرة من حوله لقتله سياسيا، فالمتكالبون أخرجوا عقافاتهم، وعملوا على محاصرة الطريدة، ففي مكة نبتت الفكرة، حين لم يعد هناك أمل في ولادة ذكر من طرف محمد، واتخذت معالمها، حين كانت جدارة زيد في ذروتها بالمدينة، كان يتوجب العمل، وأنجز ذلك بدون خطأ.

كانوا على درجة كبيرة من الذكاء، وكان تعليلهم معقولا، ولا شائبة فيه، ويبدو بريئاً لأول وهلة، أخرجوا نسخة نهائية بلا هنات، كمَا تكون الرسالة الرسمية، فحتى لو كانت قاتلة، فإنها تستعمل أسلوباً بريئاً مطهراً من كل مماحكة سياسية. زعموا أنه لا يمكن أن يكون لرسول ولد يخلفه، والأدهى من ذلك، أن لا يكون الولد من

صلبه. هذا هو الميدان الذي اختاروه ليهاجموا زيدا، وبنبرة تقارب العتاب، كانوا يقولون لقريبهم، برغبة زرع الشك في مقامه: «سيكون ذلك بمثابة خيانة أمانة الله، التي وضعها في عنقك، من المؤكد، أن هناك أنبياء، كان أبناءهم أنبياء أيضاً، لكن الكبار منهم، الذين هم على شاكلتك أنت، خاتم وسيد الأنبياء، أنت فخرنا نحن العرب، لم يكن لهم أبداً أبناء، أنظر لمن تعظمهم أكثر فأكثر» المسيح وموسى«، عرضوا عليه القصص القديمة لتحقيق مآربهم، وليتحججوا بها. في الحق، لم يتراجعوا أمام أي شيء، من أجل إحكام مؤامرتهم وتدثيرها بالتقوى. روى لي أحد أصدقاء أبي المقربين، وكان بعيد النظر، بأن أبا طالب وهو يستبق الانقلاب القادم، لم يتردد في الاستشارة حول زيد باتفاق مع خديجة وعمها ورقة بن نوفل، والنسب الذي يربطه بمحمد، لم يعرف أبداً مضمون الفتوى التي قدمها هذا الأخير، تكتموا عليها، لأنها كانت مترددة، أو لشيء آخر، ومنذ ذلك الزمن شرع في المناوشات، لم يكن زيد في عُمرٍ يسمح له باستشعار ما ينسج ضده، كان شاباً مغتراً بمداعبات وابتسامات هؤلاء وأولئك، بدا محمد متحفظاً، ثم متردداً إزاء الحجج التي تدفعه للتنكر لابنه، لكن أداء المتربصين بزيد كان متقنا، ويهدف قبل كل شيء إلى الإرهاق.

فكر إذن، ومنذ زمن مبكر، في تقوية مواقع العائلة المقربة، وتعاضد أفرادها، هل فكر أبو طالب في ابنه علي آنذاك، الذي يتراءى في الأفق زواجه من بنت الرسول؟ كانت الطريقة متقنة أكثر مما يبدو، لم يترك شيء للصدفة، حتى بالنسبة للأحكام، وعما قريب سيهتفون بإضعاف الأقرباء، والأنصار، والمستقلين لفائدة القرابة المباشرة، أما الأعمام الآخرون للرسول، فلم تكن الخصومات

بينهم متعلقة بالإيمان الذي يظهرونه أمام الجموع، بل بالسباق نحو الحكم، ليست الآلهة من يتصارع بل الرجال، ولم يكن هناك منصب ملكي للجميع، وكل هذا كان يجرى في الخفاء، دون أن نستشعره نحن المؤمنون، المستعدون لتقديم حياتنا في سبيل الدين الجديد.

لم يكن زيد على علم بطرح مسألة الخلافة مبكرا، ولم يجعله كل ما كان يتعلق به يضمن ذلك، وحتى حين تبين أن الهجمات تستهدفه فيما بعد، فإنها حرصت على أن لا تهاجمه مباشرة كشخص: «إنه غلام مقدام برهن عن كفاءته في كل المهمات! لكن حلفاءنا سيتخلون عنا بعد كل هذا الجهد، وسيرموننا بكلام جارح، مثل: «كل ذلك من أجل وضع ابن لمحمد في عرش الملك!» وسنكون عرضة لسخرية أعدائنا: «خاتم الأنبياء وليس خاتم الملوك!» ولكي يوازنوا هذا الكلام الجارح يقولون: «إنه لن يهجرك، لا تهتم لهذا، سيكون دوماً إلى جانبك». قمة النفاق، فبالعلة النبيلة لعدم المس بمقتضيات النبوة التي ينبغي حمايتها من الوراثة، كانوا بصدد تهيئة الظروف لإعداد ملك لعشيرتهم!

لجأ محمد لحجته الدامغة والدائمة: الله. فلا يمكنه أن يقوم بأي شيء، دون وحي منه، وحتى في هذا حرصوا على تهدئته، فالله لن يبقى لا مباليا للمس بمقام النبوة، ينبغي فقط التحلي بالصبر، كانوا يعرفون بالتجربة الآن، بأن الله يتجلى دائماً حين يتعلق الأمر بمشكل معلق، ينبغي حسمه.

لكن لم يكن مقدراً للأمور، أن تقف عند هذا الحد، فينبغي للدائرة أن تكتمل دائريتها، لم يفكروا فقط في تجريده من مقامه كابن، بل تصغيره إلى مقام مولى! مهمة قذرة، ستشق طريقها قبل أن

يتم إنجازها ببرودة. كانوا يقتلون زيداً بتقطير وهو حي، بالحط من قدره ليشهد بعينيه انتصار «الأسياد» الهاشميين، الذين كانوا يوثرون علي، لم يكن زيد من العشيرة، إنه غريب، وينبغي إبعاده إلى الأطراف، يخصى المولى سياسيا، إنه بجانبكم يمكنكم الاستفادة من خبراته، لكنكم لن ترون فيه منافساً، من الآن فصاعداً سيصير أبتراً، لأنه أخصي. إن منحه هذه الصفة، وعدم الاعتراف به كرجل حر، وإبقاؤه تحت المراقبة في الخدمة، يعبر عن ذلك بعبارة جامعة مانعة هي وضع السلسلة في العنق. هكذا كانت هذه الحرب«الأخوية»، التي خاضها الأقرباء ضد أبي، والتي أفضت إلى استبعاده من مقامه ورتبته، كان خَلْعا حقيقيا، ولا علاقة لذلك بالحكم الإلهي حول التبني، فهذا لم يكن سوى مرحلة أولى لتهيئة عملية قتله، الله هنا والله هناك ذو الظهر الصبور، الذي يتحمل أهواء الناس، والذي تنسب له أحكام وهي من صنيعهم، فُكِّر فيها، ووضعت من أجل وضع اليد على الناس، إن إبعاد زيد عملية مدروسة بعناية.

ورغم أنه جرد من مقامه كابن لمحمد، فإنه بقي رجلا له مستقبل واعد، ينبغي الحذر منه في أمر الخلافة، فطلاقه من زينب، وإبطال نسبه، لم ينالا تماماً من حركيته، ومن قدرته على الإضرار بحسب المتآمرين، لكن بإمكان زيد نسج تحالفات وتقوية موقعه الاجتماعي والسياسي، فزيجاته المتعاقبة تثبت بشكل كاف كونه كان يجد نفسه في أوساط عِلْية الحكم بمكة، لذا تبدت للهاشميين ضرورة لجمه، مع إبقاء علاقته المتميزة والمفخخة مع محمد، ليس في إطار النسب وإنما في جانب الحاجة.

رغم أن زيداً أُبعد عن دائرة القرابة، ولم تعد له صفة الابن، وليس له خطر يذكر، وصار غريباً، وضيفاً طاب له المقام بين

ظهرانيهم، ولكن في نفس الوقت، رجل له كامل الحقوق. فكان بذلك مرشحاً محتملاً، أو حلا من الحلول في حال استحالة التوفيق بين المعسكرات المتناحرة، ففي القبائل يُختار أحياناً أخ في الدين، تَم تبنيه مؤخراً من طرف الجماعة، في حالة وجود شقاق لا حل له بين الأنساب القديمة والمشهورة، فقيادته أقل ضرراً بالنسبة لهؤلاء وأولئك. هذا الاحتمال كان واردا، لذا كان يجب إغلاق المداخل، التي قد تمكن غير قرشي من تسنم مقاليد الأمور، هكذا صنعوا له بمكر مقام المولى، صنعوا هي الكلمة البليغة لوصف صناعة قيد من حديد، وهذا المقام لم يكن سوى قيد، يبقي المشبوه فيه تحت المراقبة. لاشيء يقال، فقد نضج على نار هادئة، مخطط الإجهاز عليه، لاشيء ترك للصدفة، بما أنهم كانوا يعرفون بأن الرجل يحظى بالاحترام، بل إنه قوي، قدروا بأنه لا ينبغي ترك ولو فرصة صغيرة، للإفلات في تعقبهم للطريدة، فالإحاطة ينبغي أن تنتهي بقتل بلا رحمة للضحية، لم أفهم إلا لاحقاً جسامة رد فعلهم، فزيد في هذه القضية، لم يكن سوى القشة التي قسمت ظهر البعير، فمنذئذ لم يعد بإمكان غريب، أن يصير فردا في جماعة، إلا بصفته مولى: تابع مرتبط بشكل دائم بحامية!

كان هو المثال الأقوم، الذي يخفي وراء حِجَاب العواطف ضجيج الأغلال، فلفظ مولى من الخسة، بحيث يمكن قراءته على أوجه مختلفة، فَهِموا منه هم ما أرادوا، طلبوا من محمد: «قربه منك، اجعله مولى، هكذا ستجعل محبوبك قريباً منك!» لم ير أبي في ذلك إساءة له، وهو يعرف بأن لا خيار له، وهكذا صار بالنسبة لهم المولى، الذي لم يعد هناك ما يخشى منه، لم يكن الأوحد في هذا، هكذا تصرفوا وسيتصرفون دوماً بذكاء، حين لا يحالف الحظ

العشائر الكبيرة، فيكون عليهم أن يتدبروا خدما مرموقين، كان زيد من الشهرة بحيث يصعب تركه حراً في أفعاله، وحركاته، لذا أدى ثمن نجاحه.

لهذا السبب كانت تجربته كمحارب أساسية في مساره، ولسوء الحظ في نهايته، قتَلتْه مرتين، مرة بوضعه أمام نار منحدر بإبطال نسبه، ومرة بتعريضه وبدون احتياط لضربات الأعداء، عاش زيد سقوطه المخطط له، وقد رآه قادما بشجاعة، والتحم به ليموت شهيدا، ويحفظ بهذا ذاكرته، وكرامته نقية غير ممسوسة، عرفت هذا بشكل أفضل يوم عينت على رأس الجيش، لأنتقم لذكراه.

قاد تسع غزوات، وكان تحت إمرته الأسماء المرموقة في الإسلام، ومن ضمنهم الخلفاء، وأقرباء الرسول، بدأت هذه الغزوات في السنة الأولى من الهجرة إلى المدينة، في شهر رمضان، أرسلت أول غزوة بثلاثين محارب، وكان أميرها حمزة عم محمد، وكان لسخرية القدر أمير الأعداء هو أبو لهب، عم آخر للرسول، ويقود جيشاً أكثر عدداً، كانت تجمع زيد وحمزة صداقة قوية، وكان بين الصحابة آصرة أخوة كبيرة، كما سنها الرسول حين وصلوا للمدينة، ولم تتأثر هذه الصداقة بما جرى أبداً بعد ذلك.

كنا آنذاك في بدايات دين يبحث عن إقناع الناس، ويبحث وهو مهدد في أتباعه وفي قائده عن الدفاع عن نفسه ليستمر. جيش حمزة يمكن عده بالأصابع، فعدد المؤمنين لم يكن يسمح بأكثر من ذلك، إنها البداية، ويجب العمل بما تطاله اليد، التعرف على الميدان، وإشعار معسكر الأعداء بأن وضعية جديدة في طور النشوء، كانت الرسالة لهؤلاء واضحة، فمحمد لم يعد في موقف دفاع، فساعة

الهجوم المضاد قد حانت، سلاما للسامعين! على المكيين الآن الدفاع عن أنفسهم، فمواكبهم وقوافلهم كيفما كان حجمها، لن تمر في سلام وأمان العادة!

شهر بعد الغارة الأولى، اعترضت قافلة مشكلة من ستين محارب، يقودها أحد أقرباء الرسول، طريق قافلة أخرى، مشكلة من مائتي شخص، يقودها أبو سفيان نفسه، تبادلوا بعض النبال ولا شيء آخر، كانت جولة استطلاع أكثر من أي شيء، لكن الغارات المتتالية كانت ناجحة، فهي تنجز بخفة وسرعة، وتكون أهدافها محددة بدقة، ولا تتجاوز في أحسن الحالات بضع مئات من المحاربين. فالقائد الذي ستوكل له الغارة يُستدعى بعد صلاة العشاء، هذه هي الشعيرة المتبعة لتعيينه على رأس الغزوة، يطلب منه أن يحضر مع الفجر في كامل عدته، السيف والدرع والقوس والنبال، كان زيد، وكلما كلف بهذه المهمة، ينتظر نهاية الصلاة التي يؤمها محمد بنفسه، وكان يرى بجانبه آخرين ينتظرون، وهم في الغالب متطوعون. ما أن يكتمل عدد محاربي الغزوة حتى يعطيهم أمر الانطلاق، ويعطي مكتوبا حول التعليمات لقائد الغزوة، والمسار الذي ينبغي أن تسلكه، ولا يقرؤه إلا في الطريق، فالإسلام كان في بداياته، وينبغي الاحتياط، واتخاذ كل الإجراءات في سرية تامة، فهذه أحد مواطن قوة جيوش المسلمين المباغتة. برؤية الأمة الإسلامية مترامية الأطراف الآن، يصعب تصديق بأنها شكلت في البداية من عمليات صغيرة وبسيطة، يبدو هذا للوهلة الأولى غير مقبول، لكن الأمر كان له مغزى، فكل عمل يقوده إيمان صلب حول مشروع ما، ويقين ثابت، وتنظيم حول قائد، لا يمكن إلا أن يحالفه النجاح، أظهر محمد دهاء كبيراً وهزم

الأعداء، لأنه نجح في إثارة الإعجاب لديهم، وتسميم حياتهم، ومفاجأتهم في الحرب كما في السلم.

لقِّب زيد بأمير الغزوات، والتي كانت بالنسبة له فرصة للاغتناء المادي، والروحي والأخلاقي، وكَوَّن تجربة رائعة وهو يقود غزوات لمدى أرحب، موسعا أرض الإسلام، وموسعا مع ذلك أفقه. لقد جعلت منه الغزوات شخصا مرموقا، ينبغي إيلاؤه الاعتبار اللازم، وشخص بهذه الهالة الحربية لا يمكن إلا أن يحظى بإعجاب النساء، لذا فخبر زواجه بزينب لا يساير ملاحمه، ثم إن زيد لم يكن العبد المذموم في نظر النساء، ولم يكن أبداً ذلك القبيح، الذي لم يتخذ له زوجا إلا بمباركة من محمد، فنجاحاته المؤكدة لدى معشر النساء، تكذب هذه الروايات الخرقاء والسخيفة، كان محبوبا ومجدّاً، وعاشر أجمل بنات قريش، واقترن بأهم العائلات، وتعرفت عليه زينب في وسط آخر، غير ما ذكر في هراء المفسرين.

لكن وبعيداً عن الجدال حول زيد، فالأخبار من الحديث أفرغت من العلاقات التي يربطها فيما بينهم المؤمنون، فلا نجد في هذه وعلى طول صفحات سوى التوبة، والصلاة، والوضوء، والجنة، وجهنم وأشياء شبيهة بهذا. أفرغوا حياة المؤمنين من العواطف الإنسانية، وجعلوا منهم أدوات إيمان، يؤدون الشعائر بدون تدبر، ويستجيبون للمواعظ بمجرد سماعها. فما أخذ على الشعراء باعتبارهم ناشرين للإثم، يهيمون في كل واد، ويتبعهم الغاوون، ويتغنون بالنساء بفاحش القول، هو الذي أعطى هذا الطعم الحريف لمرويات صدر الإسلام، حيث يبدو أن الناس لا يتحابون. وحيث طمست كل الألفاظ التي تدل على ذلك، صَمَتَ الشعر أفضله على الأقل، خلد للصمت لأنه أخذ عليه تغنيه بالرغبة والحب، رأيت بأم عيني شعراء

عظاما، يجابهون الصخر لكي لا يساءلون أو يُتخذوا شعراء مداحين، كانت الكلمة مبجلة، ومثيرة للخوف في البلاد العربية. وذلك سيف ذو حدين. فالإثم الذي أخرج آدم من الجنة، تملك المؤمنين، حتى أنهم كانوا يخافون من أن يصدوا عند أبوابها، فبعض الغلاة من الصحابة اقتدوا برسول الله، رأوا أن الإيمان الصافي يقتضي منهم الإعراض الكلي عن كل الملذات، بما فيها النكاح، فاعتكاف الرسول وقيامه الليل وصيامه يقوون الروح، ويحررون الجسد من الشهوات، مما دفع بعضهم إلى الابتعاد عن ملذات الحياة. إن كلاما كهذا، والصورة المفعمة بالتقوى والحماس التي يقدمها، في تعارض مع حياة الكفار المليئة بالتهتك، والتسري بالإيماء، تخفي الحياة التي عاشها أغلب المؤمنين، فالناس يتحابون بمعزل عن الدين، وفي الغالب في وفاق معه، فكل أولئك الذين هاجروا للحبشة وبعد ذلك للمدينة، فعلوا ذلك، لا لأنهم يعتنقون دينا جديدا، بل لأنهم يكنون لأزواجهم عاطفة قوية، لذا كانوا مستعدين لاتباعهم حيثما ذهبوا، دون الالتفات للمخاطر المحذقة بالرحلة والمنفى، كثيرات هن النساء اللواتي أدرن ظهورهن لعائلاتهن، وسرن وراء أزواجهن، ونحن نعرف بأن العيش بعيداً عن العائلة والقبيلة مخاطرة كبيرة، هذا لنقيس جسامة التضحية بالنسبة للنساء، اللواتي هجرن كل شيء من أجل الذهاب يداً في يد مع من يحببن. يحببن نعم، ينبغي أن تقال هذه الكلمة بصوت عال، حتى يكشف ما أراد المتزمتون حجبه، لنتصفح الخصومات التي وصلت بعض شظاياها حتى القرآن الكريم، لنفي الحياة في اكتمالها، وكثافة عواطفها ورغباتها، رغم التأنيب القاسي للمفتين، الذين لن أذكر أسماءهم تعففا. منذ وصولهن إلى المدينة، حلمت النساء بوشائج جديدة، بدا أن الدين الجديد يضع أسسها بين

النوعين، كان الجدال حول هذه الأسس، في البيوت كما في الجامع مستعراً ومتوقداً، لم تفهم النساء، وقد اختلط سوء فهمهن بحنقهن، كيف أن أزواجهن يستبيحون أجسادهن بكل حريةٰ، ويختلفون فقط في كيفية إتيانهن حتى تحقق المتعة، هل وهن مستلقيات على البطن أو الظهر، كما لو كن إيماء لا حق لهن في المساهمة في هذا الجدال الذي يخصهن. كل شيء كان مطروحاً للعموم للنقاش، اقتسام المهام، المساواة، القيام للجهاد، اقتسام الغنائم، وطبعا الحب بدل العلاقة البهيمية، المراد منها إرضاء رغبات الرجال الجسدية، حقاً، كان هناك من أسمح لنفسي بتسميتهم الاستئصاليون المتعصبون، الذين أعمى الإيمان بصيرتهم، فبحسب شطحاتهم، لا ينبغي للمرء أن يحب، لأن ذاك يعني الارتباط بإله غير الله جلت قدرته، بما يقتضيه ذلك من تدلل، يقضي إلى نسيان الصلاة، التي نحن مطالبون بها للواحد القهار.

لم تسكت النساء، فقد أسمعن أصواتهن فعليا، هن اللواتي اعتقدن أنهن سيعشن حياتهن، ويقتسمن كل شيء مع أزواجهن، وقد عشت يوما مشهودا حين أتت أسماء الأشهلية، وهي امرأة بليغة، تنعت بخطيبة النساء، لتحادث الرسول وقد كان محاطاً بالصحابة، فقالت له بجسارة: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأنا وافدة النساء إليك، وإني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين، كلهن يقلن بقولي، وعلى مثل رأيي، إن الله ـ عز وجل ـ بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك واتبعناك، وإنا معشر النساء مقهورات مخدرات، قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وإن الرجال فضلوا علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والجهاد في سبيل الله، وإذا خرجوا إلى

الجهاد حفظنا لهم أموالهم، وغزلنا أثوابهم، وربينا أولادهم، أفنشاركهم في هذا الأجر والخير يا رسول الله؟» فالنساء مثلها قادرات، على الاحتجاج على الأحكام الإلهية، ألم يكن قادرات على الحب، هي التي تكلمت عنه بشكل رائع، لقد ساد هذا الجو من الجدال وإعادة النظر ببيت النبي، حيث كبرتُ وحيث ترعرع أبي، ولم نتوقف عن الاختلاط به.

هذا البيت الذي ستخرج منه أمة كبيرة وحضارة لامعة، كان بزهد وتقشف يثيران الانتباه، فالحيطان منتصبة، لأنها مسنودة بركائز، والسقف كان من سعف النخل، ورغم هذه البساطة فقد كان غنيا بالجدال، ومفعما بالحياة، وكانت تصلنا منه ردود أفعال الغيرة، وانفعالات الغضب في شكل صراخ، أو صوت أواني مكسرة، مثلما وقع حين كسرت عائشة آنية صفية زوجة الرسول اليهودية. كان البيت مفعما أيضاً بالفرح والمزاج الحسن، فهاهي عائشة وحفصة تهمان بالإيقاع بسودة قيدومة الدار، أخبراها متظاهرتان بالهلع بأن الدجال قد نزل، الدجال المعروف بوجهه الشيطاني، والذي نخاف نزوله في هذه الأوقات العصيبة، هربت سودة، واختبأت في ركن قصي، بدا لها ملاذا حاميا، ولم تخرج إلا بعد أن اطمأنت بأنهما يمزحان معها، خرجت مجللة بخيوط عنكبوت، لم تتحرر منها إلا بصعوبة، كل من في الدار كان يضحك بطلاقة في أوقات الترويح عن النفس، وما انفك محمد يضيف من عنديته لمشاهد الهزل هذه. مواقف مرح كثيرة. كانت عائشة على المائدة رفقة محمد وأبيها، حين دخلت عليهم مشتكية، قالت بأنها طلقت وتزوجت من جديد، وأخذت على زوجها ضعف الباه، ولكي تبين ما تشتكي منه، أخذت هديا مرتخيا من الثوب دلالة رخاوة ذكر زوجها، غضبت عائشة خجلا من أبيها،

أما محمد فابتسم، أليس في هذا حرية فكر معتبرة؟ كانت الموسيقى التي يعرفها الخدم القادمون من أصول مختلفة، تضيف ملحاً لهذا الجو، وتُعارض الصورة الكئيبة الشائعة التي يراد إلصاقها ببيت الرسول.

كان العالم الذي نعيش فيه موزعا بين الشهادة والغيب، دون أن تحدد معالمهما، وكل شيء كان مقبولا: التعبد، والاحتفال، الطوفان، والقيامة، والانتقال من الجد إلى الممازحة، لا تفصلهما إلا خطوة واحدة. فالإيمان بالغيب يمكن تحسسه، بما أنه يخالط عالم الأحياء، كان شيئاً نقتسمه، ومحمد في مقدمتنا حقاً، وأكثر من الآخرين، كانت أشياؤه هي أيضاً مفعمة بالحياة لها أسماؤها، فهو يمنح أنعامه، والأشياء التي يستعملها أسماء، فحماره المفضل يسمى يعفور لحكمته ورهاناته، سمي باسم امرأة اشتهرت بالحكمة في البلاد العربية، سيفه سمي ذو الفقار لبأسه، كان من غنائم أحد قتلى غزوة بدر، وهذا الاسم يرمز للنصر، درعه المرصع بالنحاس ذو الفضول، لتأكيد مكانته ومقامه السامي، أما قوسه فاسمه السداد، لأنه لا يخطئ هدفه أبدا. هذه الأسماء تزرع الحياة في أشياء جامدة، فتبدو حية تخاطبا، ولا أحد منا يُخَوَّلُ له لمسها، إلا لنقلها أو للتكفل بها. ابتاع الرسول ناقة لكل واحدة من زوجاته، فالحليب كان أساس الغذاء، وخصوصاً في فترة البداية الشاقة، نوق الرسول سبعة: مهرة، الشقراء، الضبعاء الدابة، السمراء، العريس، اليسيرة، الحناء. كان يسار هو العبد المكلف برعي قطيع الرسول في غيضة قريبة، سميت الغابة لحمايتها من عين السوء، كان يعيد القطيع إلى الدار كل مساء، فيوزع الحليب بين بيوت الزوجات.

كانت نساء الرسول، يتمتعن في البداية بحرية تصرف كبيرة في

الجوار، فجاء حدث فرض الحجاب عليهن، لتأكيد ما ورد في تظلم أسماء، لغلق باب بيت الرسول في وجه الأقارب، ففقد بذلك من توهجه وسريان الحياة فيه، فبعض زوجاته الجريئات، كن يناقشن الرجال بدون خجل، كما كانت تفعل النساء المقتدرات، أمام الرجال في البلاد العربية. حتى اليوم لا أفهم لماذا نحرم من المساهمة الفعلية والمترافقة للجنسين، لا يستحق النساء حبسهن وحجبهن عن الأنظار، والانتقاص منهن لمقام كائنات، نرتبط بها لإشباع شهواتنا، لكننا نحْذرهن، ونخافهن كما نخاف الشياطين، كانت لي فرصة سماع مؤاخذات عمر للرسول، وعتابه لزوجاته، اللواتي يراهن في الليل، حين يخرجن لقضاء حاجاتهن الطبيعية: «حجب نساءك»، وصل به الأمر إلى حثه، كأنه يعطي محمدا أمرا، كنا نتهامس بأن عمراً يتصرف كنبي أخطأته النبوة!

لم يكن هناك في ذلك الوقت كنف في الدور، فالمناسي أو أماكن الخلاء كانت مخصصة لقضاء الحاجة، يذهب لها النساء في الليل، إن عادة قضاء الحاجة في الخلاء عادة بدوية، اقتضتها حياتهم القائمة على الارتحال والانتجاع، هناك حيث الماء والمرعى، وكذا سكنهم المتمثل في الخيام، كانوا يمجون بناء كنف في مساكنهم، لنمط عيشهم، ولغياب ماء جار، وهكذا كانت أماكن الراحة والحرية بالنسبة للجسد، هي الخلاء الكبير البعيد من الناس، ما يسميه العرب المتبرز. ومن هنا وصف بعض النساء ببرزة، أي النساء الجريئات، اللواتي يجادلن الرجال في الأمور العامة، هذا التقارب مبهم في نظري، فالمكان بوصفه موطناً ملائماً للأرواح يتحدثون عن خلاء وليس فراغ، ندخله صامتين كما ندخل الأمكنة التي تفرض قواعد ما، أماكن تسكنها الشياطين فنتحرر من البراز، كما نتحرر من

الذنوب، إن بهيمية الإنسان تزعجه هنا، لذا فهو يعبره وروحه خامدة كأنه دخل بياتا شتويا. كان محمد حين يخرج للمتبرز يطلب المغفرة من الله، لأنه غفل لبعض الوقت عن حمده، المتبرز مكان ترك على مبعدة للشيطان، وهو كذلك نظراً للروائح الكريهة المنبعثة منه، ولكن للنأي بالنفس عن الشر.

كان بيت النبوة غنيا بسيده، لكن أيضاً بنسائه، حيث إن بعضهن كن منارات لامعة، كلامي هنا متعلق بزيد، لذا لن استرسل في هذا الموضوع الذي يمس الرسول خصوصا، كانت أم سلمة التي لا يمكنني إغفالها للذكرى، امرأة تقية وعاملة، يقصدها نساء المدينة، فيما يطرأ لهم من حياتهم ودينهم، لكن عائشة كانت نجمة، أنارت حياة محمد، وأضافت طابعا راقيا على بيته، أنا محب لهذه المرأة ومعجب بها، لا لأنها كانت تكن تقديراً خاصاً لزيد، وإنما للإشعاع الخاص الذي يصدر منها، والذي ميزها عن باقي زوجات الرسول، يدين لها أبو بكر، والدها، بالكثير، فهي التي زينت صورته بين المؤمنين، وكانت لها أكثر من قدرة على الوصول للناس والتأثير فيهم.

من المؤكد أنها لم تكن تستسيغ زوجة أبي السابقة زينب، غارت منها وهي تراها تقتحم بيت الرسول، بادلتها زينب الجفاء والعداء، لكن الأمور هدأت فيما بعد بينهما، بل إنها صارت ودودة، فقد دافعت عنها زينب، حين نال منها البعض في ما عرف بحادثة الإفك، وانتصرت لها. فقد استغلت ألسنة السوء هذا الحظ العاثر، الذي ولد الشك من حولها، وجعل البعض ينفثون سمومهم تجاهها، كانت عائشة محسودة حقًا لذاتها، ولمكانة والدها، كانت وهي بعد صغيرة، صغيرة جداً بنضج، تذهل عدداً كبيراً من الصحابة، الذين يتباهون بمعرفة كل شيء دون أن تكون لهم هذه القدرة.

غادرت عائشة المفترى عليها، والمجروحة في كرامتها بيت الزوجية، لأنه استحال إلى ساحة وغى، تهزه الحركة الدائبة للإشاعات، يأتي مبعوثون حين يرحل آخرون، والنساء اللواتي كانت عائشة تكتسحهن كلية، وجدن متعة ماكرة في السخرية من الحدث، واجترار تفاصيله المفترضة، ضجة كبرى من أجل لا شيء. فبينما كانت ترافق محمد في إحدى الغزوات، ابتعدت عن الموكب لتلبية حاجة طبيعية، ففقدت عقدا رجعت تبحث عنه، حين عادت كانت القافلة قد تبخرت، لأنهم اعتقدوا بأنها ركبت هودجها، اتهم الجمّال الذي وجدها في الطريق، وأعادها في احترام تام لمقامها، بأنه ارتكب معها فاحشة الزنا، كان ذلك بمثابة هدية لأعدائها، إن الملابسات الحقيقية للقضية، تدور بعيداً عن عقد ضاع في الرمال، وبني من حوله اتهام بالخيانة الزوجية، فالإثم الحقيقي لهذه المرأة هو والدها، الذي أرادوا إسقاطه من مكانته.

بلبلتني هذه القضية التي أحدثت غليانا كبيرا، وكادت أن تخلف مواجهات ضارمة، كانت حمنة بنت جحش من أولئك الذين نشروا الإشاعة حول عائشة، أَخَذْتُ عليها موقفها هذا، ودون أن ترد حدجتني بنظرة سامة، لم نكن دوماً على وفاق تام، لكن الود الذي يتراءى لي كلمح بصر في نظرة عائشة لم يكن غريبا عن موقفي هذا. في كل الأحوال لم تكن مستاءة، حين دعاني زوجها رفقة علي لنتذاكر بشأنها، كان يريد سماع شهادات المقربين منه، دافعتُ عنها بشدة، فقد كنت وبصدق أرى أنها فوق الشبهات، بينما هاجمها علي. فما أن رزق بحفيدي الرسول الحسن والحسين حتى تغير، صرنا نتعامل معه بحذر، لأن حرب الخلافة فتحت، قال وقد تقوى بموقعه الجديد موجها كلامه للرسول: «يا رسول الله، غيرها كثير، يمكن أن

تتخذ لك من شئت منهن، اسأل تلك الأمَة»، كان يقصد بريرة، توجه نحوها علي، وأغلظ لها في القول، فلم ترد إلا بهذه الكلمات: «لا أعرف عنها إلا ما يعرفه الصائغ عن الذهب الخالص»، رد مفحم لأمة وفية، ذات قلب طاهر، فليس دوماً كلُّ ما يلمع ذهبا.

مازلت أذكر هذا اليوم المشهود حيث كان علي يهم بالزواج من فاطمة، بعد غزوة بدر، كنت في مشاورة مع الرسول، الذي رافقته إلى بيته بعد الصلاة، حين جاء علي بشكل مفاجئ، كان مرتبكا، لقد وقع حدث جسيم جعله في هذه الحالة، ودفعه للمجيء في هذا الوقت المتأخر من الليل، لكنه كان في بيته وبين ذويه، ابن كما هي حالتي أنا.

مرت سنتان منذ مجيئنا للمدينة، هو آخر من خرج من مكة، فقد كلفه محمد بتسوية عدة قضايا بقيت معلقة هناك، وكان معتزا بنفسه في هذه الأيام، فقد حمل اللواء في المعركة التي بنت شهرة محمد، كان فارساً لا يشق له غبار، لا أشك في ذلك، وهو بعد يافع كان مستقبل لامع يلوح في الأفق بالنسبة له، ويفتح له ذراعيه، كان بصدد الاقتران ببنت الرسول.

ما أن مر شهر على غزوة بدر، حتى جاء علي بغتة في تلك الليلة، غابت بسمته المعهودة، والتوى وجهه من الغضب، كان زواجه قد عقد، واتفق مع الرسول على أن يقدم مهراً متواضعاً، كان يستعد، وباع حليّاً إلى صاحب دكان في المدينة، ليستعين بثمنه على مصاريف الزواج، وعوض أن يظهر الفرح كان يبدو غاضبا.

فسر لنا سبب غضبه، فبينما أعد بردعات وأكياس جماله، التي تركها قريبة منه، صدم حين عاد إليها ووجدها وقد قطعت أسنمتها،

وبُقِرت جنوبها، مشهد دموي متوحش، وعَرف من المارين من اقترف الجرم، إنه حمزة عمه، وعم الرسول، أخذ هذا الأخير عباءته لبسها، واتجه نحو دار عمه، تبعته أنا وعلي، خبطنا الباب، فخرج حمزة ثملا، ثملا كلية، وعينيه محمرتان، كأنهما جمرتان، تفحص الرسول، وصعده من أخمص رجليه حتى قمة رأسه، ثم حذق في وجهه، وانفجر قائلاً: «لستم سوى عبيد أبي!» عاد محمد على عقبيه، لم يجد ما يقوله، حمزة بطل الحروب المغوار، المخلص الدائم، كان مدمنا على الخمر، عاد ليواصل الشرب مع أصحابه، والاستمتاع بأغاني محظيته، لم يكن الخمر بعد قد حرم، إلا بعد مدة. حمزة المقرب من أبي، كان متيقنا بأنه خارج سباق الخلافة، استشهد لاحقاً هو الآخر، ودفن في نفس اللحد مع أخ لزينب بنت جحش، كم العالم صغير.

من خبر لآخر، هكذا شط بنا علي بعيدا، بينما كنا بصدد عائشة. لدي فعليا نفس سن هذه السيدة العظيمة في الإسلام، التحقت بالمدينة في نفس الموكب، الذي كانت فيه هي وذويها، وكانت لنا الفرصة آنذاك، لنلعب سوياً في لحظات التوقف، تتعالى ضحكاتنا، حتى أنها تثير انتباه الكبار، وحين تتعب من الجري، تسير لخيمة عائلتها، وتلهو بإخراج عرائسها، تَصُفهن فوق طنفسة، وهي تغني لهن أشعاراً شائعة، كان لها وهي بعد في ذلك السن فصاحة مبينة، أرى نفسي وأنا جالس فوق ربوة مندهشا، وأنا أرقب عن بعد لعبها، واعداً نفسي بتعاظم طفل معتز بنفسه، بأن أصير محارباً مرموقاً، تفحصت بعيني غرابة هذه الكائنات الهشة المصنوعة من قطع ثوب، والتي تُنفخ فيها الحياةُ بابتهالات بنت أبي بكر الصغيرة، تنضح منها قوة مدهشة وهي تأمر عرائسها، رغم أنها لم تكن موجهة إلا لكائنات جامدة.

أجد بأن من واجبي أن أصدح بالحق في نقط عدة، تركها الفقهاء أعداء النساء معتمة، لم يكن محمد أبداً شغوفاً بالعذراوات، فعائشة كانت الوحيدة البكر من بين أزواجه، الباقي كن إما أرامل أو مطلقات، ولم تكن امرأة سمينة ولا جذابة، فالنحول الذي عانت منه، والقابلية للعطب، لم يفارقاها طيلة حياتها، حاولت أمها في ليلة دخلتها كل شيء من أجل تسمينها، لكنها أبدت انقباضاً من إتخام نفسها بالطعام، ولم تنجح في إقناعها بابتلاع كمية من التمر والخيار، الذي تستسيغه أكثر. تعذبت عائشة قبل أن تلتحق ببيت الزوجية، كان محمد في الخمسين من العمر حين دخل بها، ادعى البعض بأنها عكرت حياته، لطيشها وهياجها، فكانت سبب الخصام في بيت النبوة، الذي كان من شأنه إلهاؤه عن تبليغ الرسالة، والحقيقة تتمثل في كونها كانت ذكية ذكاء مرهفا، وكانت روح الثورة تتملكها، كما كانت منشغلة بوضعية النساء في الإسلام، تنشد المساواة بينهن وبين الرجال، اللواتي من حقهن الحصول عليها. لذا كانت تغضب في وجه نساء وصحابة، لا يرون في المرأة سوى كائناً منذوراً للتزاوج، وخدمة الرجال، ويحدث أن تصرخ في وجه الغباء، الذي يتجلى أحياناً من حول الرسول. كانت تزعج قومها، الذين كانوا يرون فيها زارعة فتن، لذا بحثوا عن وسيلة لإنهائها، وذلك باتهامها بجرم، لم تكن قادرة حتى على التفكير فيه، بسبب ذكائها ومقامها، وحالتها الصحية، والتي هي وحدها كفيلة بأن تصدها عن اقتراف هذا الإثم. لقد تملكت هي وحدها محمد على حساب المؤمنين، الذين كانوا يتطلعون فقط لرؤيته ولمسه، وهذا المأخذ لم يكن يخلو من صدق، فقد كانت تحب البقاء معه، وقد أفضت خلواتها تلك معه إلى فائدة كبيرة للدين، والدليل على ذلك التراث الذي تركته للاحقين، عاشت

معه سنواته الأخيرة، تلك السنوات التي كرس فيها جسده كلية للإسلام، ونقلت مهارتها للمؤمنين، الحريصين على تعلم شعائر الإسلام، وكانت من جهة أخرى، الوحيدة التي ذهبت بعيداً في وصف تفاصيل الوضوء، والنكاح، والعلاقة بالنساء عموما، ووصف أوقات التجهد، التي رأت فيها محمد يفضي بهمومه وآلامه إلى الله.

أقول هذا بدون مواربة، تلك المرأة كانت حظا ساقه الله للإسلام، فقد نجحت في تلطيفه، أكثر من أي أحد آخر، ولو استمعوا لها، لكنا سرنا بعيدا، ولكانت الأجيال الآتية ممتنة لنا، بعيدة النظر، لم تكن عائشة تسمح لنفسها بأن تبقى أسيرة القيود، وتجهر بما لا تتجرأ النساء على قوله حتى لأنفسهن، كانت سابقة لزمنها، وأستغرب كيف أنها في سن الخامسة عشر أبانت بأنها قادرة على إرباك مدعين للعلم، كانوا يرطنون أمامها، ويضيعون في اعتبارات عديمة الفائدة، بدونها كنا سنرزح في طغيان مطلق، فقد اعترضت على الرسول في عدة أشياء، وجاهرت بأن الزواج كما تم سنه ليس إلا عبودية!

لم تعمها الغيرة - وهي أمر طبيعي بين الناس - عن الاعتراف بمزايا الزوجات الأخريات، ولأنها عالمة لم تكن تنقاد للركون لمتع الجسد، وتحاول أن تحافظ على الرسول، الذي تعرف أكثر كم هو ثمين بالنسبة للبشرية جمعاء، وكان لها وعي بجريان الزمن، وتعرف أكثر من أي أحد آخر العلل المتربصة بزوجها، الذي كانت تسهر على تمريضه.

إن الهجمات والشكوك التي استهدفتها، لم تكن موجهة فقط ضد النساء، اللواتي تخلع عليهن صفات شيطانية، وإنما ضد الشباب

والذكاء، ضد طراوة الثورات، ولأنها امرأة مرهفة، فقد كانت تمقت المحافظة والتعصب للرأي، تتكلم عن الحب براهنيه، تجعلنا كلنا نرتجف، إنها تزرع الفرح من حولها. رأيت بعيني مشهدا بدا لي في أول وهلة لا يصدق، فبينما كنا نسير مع محمد في إحدى الرحلات، طلب منا أن نتقدم، ونتركهما في الخلف، هو وعائشة، لم أقاوم رغبة استراق البصر نحوهما، حين رأيت بدهشة عظيمة، الزوج والزوجة يتسابقان، سبقته عائشة، وطفقت تمازحه حول سنه، كظمت الضحكة التي كانت تدافعني من سعادة رؤيتهما، يلهوان كصبيين، وحدها لها قدرة استلال الرسول من دائرة المتملقين، ورميه في يم الحياة، التي يهوى الإقبال عليها حين تتاح له الفرصة، هذا الرجل الذي عانى من العزلة وسوء الفهم! عادا إلى الموكب بوجهين جديين، كما لو أنهما طفلين يخشيان الضبط بالجرم.

هكذا كانت عائشة، تزرع الحياة في محيطها، تحب الذكاء، تحب الموسيقى، كم سمعت بعد ذلك من الأقوال المعتمة الرجعية حول هذه المسألة، كانت تندد بحب هذا الفن، كنا نعزف دوماً بالآلات، التي كانت مألوفة آنذاك في بيتها، وبحضور زوجها! وحتى حين يمر موكب غناء، وعزف من الزقاق، تتخفى وراء زوجها لسماع الإيقاعات الإفريقية، التي كان العبيد والموالي يغنونها بمناسبة الأعياد، وخلافاً للفكرة الشائعة فقد كانت مولعة بالشعر، وتحفظ منه آلاف الأبيات، كان محمد معجبا بترديدها الشعر، اعتمادا على ذاكرتها المدهشة، قيل لي بأنها ورثت هذه الملكة عن أبيها، ويبدو لي أنها كانت أكثر صلابة حقًا منه في هذا المجال.

رأيت الرسول منتشيا، حين عادت هذه المرأة المتكبرة إلى بيتها بعد أن هجرته، كان سعيداً لرؤيتها تعود، وقد برأتها الإرادة الإلهية،

سيجدها مجدداً بالقرب منه للتشاور، ولتقديم النصح الوجيه له، لقد عودته على أحكام ثاقبة، بدون تصنع ولا مهادنة، كان يبدو له بأنها تخترقه بنظراتها كفتاة في لحظات شكه، كما لو أنها تدفعه للذهاب أكثر في بحثه عن الحقيقة، كم من مرة عنفته مشككة في دعوته، مجابهة إياه مع صعوبات التواصل مع الغيب ومختبرة أحكامه.

هذه امرأة كان زيد يحب مخالطتها، لأنها تعلي كل من يحيط بها إلى ذرى سامقة، تمْحِضه هو على الخصوص حدبها، وتستشيره حين تكون في حاجة لذلك، زيد الحقيقي هو هذا.

لم يكن العبد الآبق والقبيح الذي زعموا، فهذا ليس سوى ثرثرة، أرادت الأخبار أن تزين بها روايتها، حتى يسهل جعل العموم يصدقونها. أنا أسود البشرة ومعتز بهذا اللون البراق والنبيل، الذي يذكر بالحجر الأسود، الذي نقبله ونحن ندخل الكعبة، ورثت ذلك من أمي، تلك الحبشية التي دللت الرسول وهو طفل، كان زيد أبيض البشرة، بقدر ما يمكن أن يكون البياض في البلاد العربية، مثل عائشة الملقبة «بالحميراء» أي تلك السمرة الخفيفة، كنا في هذه النقطة مختلفين، حتى أن بشرتينا المتباينتين لم تخلوا من تغذية هذر مؤذ.

حين عين أبي أميراً على أول غزوة يقودها، صاح أعداؤه الذين لم يعرفوا كيف يغتابونه: «ما أجمل الأمير الذي ألصقوه لنا!» مستدلين ببشرتي السوداء بينما كان زيد «أبيض»، ويهزؤون في الخفاء من أصولي، التي يرون أنه مشكوك فيها، ثم نشروا الإشاعة التي سرت كنار في هشيم، عن الخيانة العابرة لأم أيمن، والدتي المباركة مع عبد. بدأ المستبسلون الشرسون في الإساءة إلينا بعملهم القذر والمدروس، فذكروا حتى اسم من اقترفت معه الفاحشة، طرت من

أريكتي في اليوم الذي وصلتني فيه هذه الخزية، أشهرت سيفي طالبا الانتقام، لكن كان عليَّ أولا أن أخبر جدي، جريت عنده وأنا مغتاظ، احتضنني بحرارة، كان لطيفاً ودوداً ورائعاً، وقد بلغه الخبر بنية الإساءة له كأب، وليس لإبلاغه كقائد للجماعة. داعبت يده الكريمة شعري، كان للاتصال به سحر خاص، لا يخلٍّ بوعده، سحر يعيدني دوماً لما هو أساسي، الحب الذي يكنه لنا، طلبتني عائشة يومها باستعجال، فهرولت نحوها، ابتسمت في وجهي، وقالت لي: «خرج رسول الله لتوه من هنا، رأيته مشعا وممتلئاً من السعادة، للكلمات التي سمعها: «أتعرفين يا عائشة بأن أحدهم رأى زيداً وأسامة ممددين، الواحد قرب الآخر، وأرجلهما بارزة من اللحاف، الذي غطتهما به أم أيمن»، فقال لي: «هذه الأرجل جاءت من هذه!» هذا ما بلغ إليه الأمر مع الهاشميين، الذين وظفوا كل شيء للنيل من زيد، كانوا يتحرشون بمحمد بلا كلل، بصددنا، فالحسن والحسين ولدا، والحرب أعلنت بدون أن نأخذ علما بذلك، فكل شيء يصير من أجل وضع الصغيرين في المقدمة، وإرجاع الآخرين إلى الخلف. وأنا صغير جريت نحو محمد لأقبله، فسقطت وأنا أجتاز عتبة الحجرة، نزف الدم مني، أخذني بين يديه، ومص الجرح لينظفه، رأت فاطمة المشهد، وأبدت امتعاضا شديدا، فقال لها: «لو كان أسامة بنتا، لألبسته فاخر الثياب، وأغلى الحلي لأجعله جميلا!» فعل ذلك فيما بعد، رغم أنني لست بنتا، فقد تلقى ذات يوم هدية، عبارة عن لباس ملكي، أعجب به كل من حوله، فأشادوا به، لباس أجمل من كل ما رأيته، لبسه في صلاة الجمعة، ثم نزل من المنبر، فدعاني، كنت آنذاك يافعا ـ وألبسني إياه أمام كل من حضر الصلاة، ملئت سعادة غامرة إثر هذا الحدث، ، كنت متعودا على تلقي أحجار

كريمة منه، ولكنه في ذلك اليوم ألبسني فخراً واعتزازاً وكرامة، جدي أب أبي.

الأبوة هي مواقف كهذه، لم يكن يفتح مجالا للشك حول العاطفة الأبوية، التي كان يكنها لزيد ولما يتعلق بزيد، موقف يغيظ الآخرين، عاطفة جياشة من طرف هذا الرجل، الذي أثنى الله عليه في نصه المقدس، فكم من مرة أجلسني فوق ركبتيه مع الحسن والحسين، فأرى آنذاك نظرات سوداء قاتلة مسلطة علي، لم أفهم مغازيها القاتلة إلا فيما بعد. كان يقدمنا كطفلين له، أنا وأبي، في حياته الخاصة والعامة، ففوق ناقتي دخل فاتحاً مكة، وعبرت عتبة الكعبة المشرفة رفقته، ورفقة عثمان وطلحة، أما بلال فقد فتح بابها، ومكث هناك يسهر علينا، حتى فرغنا من الصلاة، لقد عللوا رِدّة البعض بمجيئي المتأخر فكل شيء كان صالحاً لكي يوغل الخنجر في الجرح.

كان الهاشميون يقيمون الدنيا ولا يقعدونها، كلما سنحت لهم فرصة اصطناع تعاطف الناس، فجعفر قريب محمد ذائع الصيت، في الوقت الذي استشهد فيه رفقة زيد، كان تحت إمرته، وخلفه في القيادة حينذاك، وحين وصلنا نبأ استشهادهما، بلغ منا الحزن مبلغه كما أسلفنا، أما بالنسبة لجعفر فقد تعبأت العشيرة كلها، وانهمر سيل الدموع والنواح عرمرما، وفي كل مكان أشهر استشهاده، ووصف موته البطولي في أدق تفاصيله، فيداه اللتان بترتا في المعركة، كما قيل، استحالتا إلى أجنحة، ومنذئذ صار جعفر الطيار! حمل الرسول ابنه فوق فرس رفقة أحد أبناء علي، وما أن انتهى المأتم حتى تزوجت زوجته بأبي بكر، وحين مات تزوجت بعلي، فلا ينبغي ترك عقب لشهيد هاشمي مطلقا، إذ لا أحد يمكنه توقع ما يمكن أن يحدث، أما أبي ـ ليرقد في سلام ـ فقد مات ودفن.

أحرص رغم كل شيء على أن لا يموت محاطاً بالأكاذيب، التي حطت من مقامه، كان زيد رجلا حرا، فملكاته التي وهبه الله إياها أعلت من شأنه في مكة، ولم تُكره أي امرأة على الزواج منه، لأنه لم يكن هناك مدعاة لهذا، ولم يكن في حاجة لذلك. أحبته زينب، واستعملت كل غويات النساء للزواج منه، تمّ إغفال هذه الإشارة الجزئية، لا أعرف لماذا. جيران في السكن، كان زيد هو أول مؤمن يحفظ القرآن، ويرتاد بيتها ليعلمها المبادئ الأولى للإسلام، لقد درع كثيراً دروب الوحي، الذي يعرف عنه كل شيء يعلم أنه بليغ، مليح، مقنع، نال احترام زينب قبل أن ينال حبها، لكن باب العواطف هذا لم يفتح من طرف المفسرين، الذين يتعامون حين يريدون تجنب شيء يحرجهم.

تمكن ورع حزين في النهاية من لف كل شيء في عباءته الدكناء الغليظة، مجبراً الحب على الركون للصمت، كانت زينب تعيش في وسط راق ومرهف، متعودة على الترف والأناقة، فأختها حمنة تزوجت أولا عبد الرحمن بن عوف، وهو شخص هام وموسر، وتطلقت منه لتتزوج مصعب، أحد فتيان مكة المدللين، كانت أمه الثرية لا ترفض له شيئا، يلبس أغلى الثياب القادمة من أماكن بعيدة، نعال حضر موت، ويتعطر كما لا يفعل أحد في مكة، في هذا الوسط المتعود على الاحتفال والشعر والغناء، عاشت زينب التي رأت أختها تتزوج بأحد أبرز صناع الأحداث القادمة، لم يكن بإمكان زيد أن يخلب لبها، لو كان ذلك الفظ الغليظ الذي زعموا، لقد كانت شغوفة بذاك العالم المفكر، والتاجر الحاذق الذي تزوجت به، الذي كان ابن القريب المبجل، زوج خديجة، محمد، أثر كل ذلك دفعة واحدة، ولا شيء آخر.

لا تنقل الأخبار التاريخية الأمور على هذا النحو، بل إنها لا تذكرها، لا لأنها تتجاهل الأحداث الصغيرة، بل لأن نيتها سيئة، لكي تقولها كما حدثت، زيد كان مطلوبا، لنقر بهذا وإذا جاز لي القول، وبدون أدنى إحساس بالإهانة، فزواجه من أمي كان شبيها بما يقع في الدور الكبيرة، حين يصير الأبناء شبانا يتسرون بإيماء الدار، ولدت إثرها، وصارت أمي أم ولد. وكان لها من قبل ابن يدعى أيمن، أنجبته من عُبَيْد ابن زيد الحبشي، وقد سهر أيمن في كبره على وضوء الرسول، استشهد في حنين وهو يقاتل، تغمده الله بواسع رحمته.

تزوج زيد قبل زينب امرأة ذات مكانة مرموقة، وقريبة من الأب لمحمد، وتزوج في نفس الوقت الذي تزوج فيه قريبات الرسول، بنتا لأبي لهب، لا أشك مطلقا اليوم، أنه كان لأبي حس جذاب، مؤثر، وبالغ التأثير في الجوار القريب. كان أبو لهب جاراً لنا في مكة، كما كان كذلك عقبة بن أبي معيط، وقد دام زواج زيد من ابنته، وذلك يرجع بدون شك للتحالفات التي كان يعقدها محمد داخل عشيرته، آل هاشم المتكتلين في البداية، لم يأت هذا الزواج تتويجا لحب، لكن، وللغرابة، بقي زيد وفيا لهذه المرأة التي هاجرت معه للمدينة، رغم موقف والدها، أحد الأعداء الألداء للإسلام، والذي مات في غزوة بدر، إن هذا الزواج حجة دامغة على جدارة زيد، ومقامه المتقدم في مكة، لذا احتفظ بود خاص لها، بمعرفة هذا نبتعد عن الصورة التي أرادت الدعاية ترسيخها.

مع زينب اتخذت الأمور منحى آخر، ففترة الهدوء انقضت سريعا، فأهلها كانوا من أشد المدافعين عن الإسلام، فأحد إخوتها عبيد الله، الذي تزوج بأم حبيبة بنت أبي سفيان، التي تزوجها الرسول

بعد وفاته، كان من أوائل الذين هاجروا للحبشة، ومصعب زوج حمنة هاجر هو أيضاً للحبشة، وعاد لمكة ليلعب دوراً هاماً، فله أوكل الرسول مهمة مرافقة أول مؤمني المدينة، ليعلمهم تعاليم الدين الجديد، حمل اللواء في غزوة أحد، ومات شهيداً كما مات، عبد الله بن جحش، تزوجت حمنة بعد ذلك طلحة، أحد أعضاء مجلس الشورى، الذي عهد إليه اختيار الخليفة بعد وفاة أبي بكر.

لم يفتأ موقع زيد خلال تلك الفترة يتقوى، وتأثيره يتسع، كان قائداً عسكرياً، تاجراً غنياً، ابنا للرسول، ورجلاً لبقاً تقدره النساء كثيراً، دخلت زينب على غرار إخوتها في الدين الجديد، هاجرت تحت رعايته إلى المدينة، وكرست حياتها للعبادة، وفعل الخير، فقد كانت مشهورة بصدقاتها، وإيثارها الغير، لقبت بالحكيمة في دار النبوة، حيث كنت أراها دوماً بعد طلاقها، إذ كانت تنزوي في صلواتها، معرضة عن صراعات أزواج الرسول الأخريات. كانت قصيرة القامة، ولم تكن جذابة بعكس الأوصاف التي منحها إياها القصاصون، الذين ذهب بعضهم إلى أن محمد شغف بها حبا لجمالها، عيبها الوحيد أن مزاجها يكون أحياناً حادا، لا شك في ذلك، كانت تهيئ الجلد بيديها، حتى أنه يخلف ندوبا في يديها، وبحسب علمي، كانت أبعد من أن تكون شبقة أو حريصة على ذلك، لقد انتهت إلى إهداء محظية إلى محمد، ربما للتحرر نهائيا من واجباتها الزوجية.

تعثر زواجها بزيد في جانب منه لهذه الأسباب، وإليها انضافت أسباب أخرى متعلقة بتطور علاقتهما، إن وضعية زواجها الفعلية، كان على النقيض مما زعمت الأخبار المتملقة، فقد رأت نفسها تتقهقر في عيني زيد، إلى مكانة غير لائقة بها، بالمقارنة مع باقي

الزوجات. كانت بنت أبي لهب قريبة، لكن الخلاف بين بيوت آل هاشم أبعدهما عن بعضهما البعض، مما جعل التساكن صعبا، ورغم أن الهجرة للمدينة خففت وطأة الخلاف، بابتعادهم عن العشائر المتصارعة في مكة، لكن التباغض بقي قائما.

غير أن هناك سبباً آخر أفضى إلى تسريع طلاقهما، فما أن مرت الظروف العصيبة، حتى بدأ زيد يعيش قصة حب أخرى، فمنذ مجيئنا إلى المدينة، كان يبدو بأنه غير مرتاح في المكان، فهو موزع بين ثلاث زوجات، بتناول طعام العشاء كل ليلة عند إحداهن، مثل كل أسياد المدينة، وكانت أم أيمن تتخلى عن دورها لأنها تكبره سنا، ، لدرة بنت أبي لهب التي كانت هادئة، ولا تثير مشاكلا، أما زينب فقد كانت تقضي معظم وقتها في الجامع، تعين في إطعام من لا مأوى لهم، والذين ينامون في المسجد، وتنأى عن العالم مع الوقت، ولم يكن زيد مستسيغا هذا الجو، كان باله مشغولا أكثر من أي وقت مضى، وبدا أنه ينتظر شيئاً ما.

لم أتأخر في معرفة السبب، كان يحب بشغف امرأة شابة، بكرا، تنتمي لأشرف العائلات، أم كلثوم، وهي بنت عقبة ابن أبي معيط، أحد أشد أعداء محمد، والذي قتله علي، وحز رأسه في بدر. شغفت ابنته هي أيضاً بحب زيد، فمجاورة دورهما في مكة، مكنتهما من نسج علاقة، ما انفكت تتقوى، وتعوّدا على الالتقاء ببعضهما خارج المساكن، وشيئاً فشيئاً تعاظم تفاهمهما، كان زيد محتاطاً من الأنظار المتلصصة، خوفاً من زينب، ولكن لاعتبارات سياسية توثّقت علاقاتهما، باعتناق أم كلثوم للإسلام سرا، بخلاف كل عائلتها، وذلك قبيل الهجرة، لكن سرهما بقي محفوظا، لم يعرف أحد عن هذه العلاقة أي شيء، لا في وسط العائلة، ولا الزوجات ولا الخدم، بل حتى محمد لم يكن يعرف أي شيء عنهما، رغم فراسته.

من المدينة حيث كان زيد من أوائل الواصلين، حافظ على صلة معها عن طريق القوافل العابرة، آنذاك كانت العلاقة مع زينب تتردى، إذ أبدت رغبة في الانفصال عنه، فقد وجدته أكثر تقلبا من أن تحتمله، وأعتقد صادقا بأنها شكت في أمر العلاقة، التي يفضحها سلوكه الشارد، وقلة الاهتمام بها. انفصلا في السنة الخامسة من الهجرة، وبدأ حينذاك ينظم أمر مجيء محبوبته أم كلثوم، فقد دبر أمر هروبها، كما يحدث في قصص الحب، التي يحكيها الشعراء، تظاهرت بأنها تريد الذهاب للبادية عند أقرباء لها، وبعث هو دليلاً مجرباً من أحد رجالاته، لانتظارها أثناء خروجها من مكة، قادها الدليل مباشرة إلى بيت النبوة، حيث حظيت باستقبال أم سلمة، لم يكن من داع لفضح علاقتهما، قبل أن يقْتَرِنا بحسب أحكام الشريعة. زعمت بأنها جاءت كمسلمة هاربة بدينها، من المفيد أن أذكر بأن أم كلثوم، كانت أختا من الأم للخليفة عثمان، وهي أموية أبا وأما، كان أخوها الوليد من أوائل الولاة في الإسلام، والذي كان موضوع عدة تعليقات، وكان علي يكن له بغضا خاصا، لزم التصرف بكثير من الحذر، لتجنب كل شبهة أو حسد، غادرت مكة في نهاية السنة السادسة للهجرة، تعقبها أخوها ليعيدها، وأخفق في ذلك، تزوجها زيد إذن، وبعد وفاته تزوجت بالتوالي من الزبير، وولدت منه بنتا، زينب، وبعده، عبد الرحمن ابن عوف أحد صحابة الرسول الأكثر غنى، كان على رأس أكبر وأهم القوافل، وبعده عمر ابن العاص فاتح مصر، كل هذه الزيجات المتتالية لأم كلثوم، تعطي فكرة كافية عن أهمية العائلة التي تنتمي إليها، وعن وزن زيد آنذاك. ما ذُكِر يبعثر باختلاق حكاية العبد، الذي أجبرت زينب بنت جحش على الزواج

منه، فهذه الأخيرة هي التي جرت وراءه، ولم ينتهي الأمر عند هذا الحد، فقد تزوج زيد هندا بنت العوام، وأخت الزبير.

تسقط الحكاية الرسمية لزواج زينب من تلقاء نفسها في الماء، فالأمور كانت من التعقيد أكثر مما حاولوا جعلنا نعتقد. كان زيد شخصا غير مرغوب فيه، وكان يجب إسقاطه، إذ ما انفك مقامه يعلو مع الوقت مع أبيه، لا حارثة الخيالي، ولكن الحقيقي، الرسول محمد. فقد انضوى في تحالفات، وحده الزمن الطويل نسبياً كشف عن ذكائها ووجاهتها، فنجاح الإسلام لم يتوقف فقط على الهاشميين، فعلى هؤلاء أن يبرهنوا على قدرة على الصبر، حتى يقطفوا ثمار استثمار توسيع قاعدة الجماعة، التي انطلق منها الإسلام، ورغم أنني لم أجر مع أبي أي نقاش حول هذه الأبعاد، فإنني فهمت في سنواته الأخيرة، الخطر الذي يعرض نفسه له بتوسيع وشائجه. ربما كان يلعب، لفائدة أبيه تجاه الأمويين نفس الدور الذي يلعبه عثمان لصالحهم ضمن المسلمين، فمصاهرته مع أبي لهب، وزواجه من أم كلثوم يوضحان بجلاء قربه من هذه العشيرة، والتي لم يقطع أبداً معها، حتى في أشد هجماتها على الرسول، كانت له علاقة جيدة مع أبي بكر وعائشة، إن كانت ذاكرتي جيدة كان آل هاشم يعادونه، لأنه يهددهم بكونه ابنا للرسول، ولأنه شيئاً فشيئاً ما فتئ يوسع تحالفاته. ولاشك أنهم هم من عملوا على انتهائه، باستغلالهم لطلاقه من زينب، الذي كان بالنسبة لهم الفرصة السانحة، التي ينبغي اهتبالها بأي ثمن، وبما أنه ينبغي الحذر حين يتعلق الأمر بالزواج من نساء آل هاشم، فقد عملوا على وضع هذه في مخدع الرسول، وهكذا سيقتضي الأمر تلقائيا قطع رابط النسب مع زيد، لشرعنة هذا الزواج المضاد للطبيعة، كان عليهم أن يلجأوا لكل التعازيم السحرية

للوصول لهذا الهدف، ومن بين ذلك تزيين الفائدة، بعيدة المدى لوجود أطفال ولدوا من صلب حفيدة لعبد المطلب! الحسن والحسين كانا هناك، ويتوجب فقط إبعاد من هو على مستوى القرابة قادر على المطالبة بمقام شرعي، كابن الرسول، سمعت مثل هذا الكلام حين ولدت مارية القبطية، جارية محمد الجميلة، إبراهيم، فبدأ الناس يرددون: «هاهو النبي ابن النبي!» كان علي هو أول من أعلن بأن هذه الولادة ناتجة عن الزنا بين مارية وعبد، لم يتردد في تهديده بحد السيف، وبهذا زرع الشك حول مرشح جديد، أخذه الموت مبكرا، كما وقع لكل أبناء محمد من صلبه، أما بالنسبة لزيد أبي، فقد تكفل الطموح الأخرق للناس بإنجاز المهمة.

إنه يرقد الآن في سلام، وكل سنة لا أفوت فرصة الذهاب إلى قبره للترحم عليه، لأقول له الأفكار الأخيرة لأبيه عنه، حين كان بصدد توديع الدنيا، أقول له ببساطة كم كان يحبه، ولا أحرم نفسي أبداً من أن أحكي له تفاصيل غزوة الانتقام، التي قربتني منه كثيراً، أحكي له كيف أن لكل شيء نهاية، كيف قُتِل عثمان وعلي، وكيف أن أبا سفيان، الرجل الثري، الذي كان يقود القافلة والتي عاد منها يركب حصانا وراء محمد، وقد وضع أخيراً أحد أبنائه في عرش الملك، الذي كان يحرص على الوصول إليه أشد الحرص، لكن الأخبار تروج عن حفدة العم العباس الذين يعملون على وضع لبنات سلطان قَادِم.

الفهرس

يوم الصمت ٥

ابن القدر ٤٩

المؤامرة ٩٣

المبتور ١١٣

هذا الكتاب

كنت مندهشاً بهذا الذهاب والإياب اليومي، الذي أترقبه بعيني حينما أكون متحرراً مما يشغلني، أفعل ذلك لأقنع نفسي بأن زمن النكسات قد ولى بلا رجعة. وكان أبو مسرح الملقب بأنس، وهو من أوائل المهاجرين، هو أول مصفاة موضوعة أمام القادمين، يعرفهم جلهم، ويفطن لما تخفيه وجوههم من أقنعة بشوشة أو عابسة، يتمتع بنظر ثاقب ونافذ، ويأتي بشكل دائم لرؤيتي، متشكيا من المجيء الحثيث للناس.

ISBN 978-993335305-6

9 789933 353056